البحث عن خنوم

د. حسين عبد البصير

دار نشر
أنباء روسيا
Russian News
www.russiannewsar.com

الناشر
أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com
رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعى
secertary_ert@yahoo.com
المراسلات
القاهرة – مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي - ص. ب. 72
Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 071
+ (20) 01006774027

الإخراج الفني/ أحمد عثمان

لوحة الغلاف إهداء من الفنانة / إيمان الباز

أسرة التحرير / منى فرج- شيماء محمد

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: + (202) 44789644 & 46

الطبعة الأولى 1998 (وزارة الثقافة)
الطبعة الثانية 2010 (الحضارة للنشر)
الطبعة الثالثة 2017 (دار نشر أنباء روسيا)
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن كتابي من الناشر.
رقم الإيداع : 2017 / 1077
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 476 - 085 - 7

بالتعاون مع

المؤسسة المصرية الروسية للثقافة و العلوم

Египетско-российский
Фонд культуры и наук

www.a-rfcs.org

حسين عبد البصير

البحث عن خنوم (رواية)

دار نشر

www.russiannewsar.com

إلى

الدكتور/ زاهى حواس

مع حبى وتقديرى

استهلال

بداية لم تكن رغبتى صادقة فى كتابة هذه القصة؛ لأنه لم يدفعنى لكتابتها أهل العلم والمعرفة؛ ولأننى كتبتها طلبًا للمال، لكن بعد أن رأيت اليأس يغرق النفوس والشك يحطم العقول، والضعف يخيم على قلب وعقل كل مستنير، صحت الهِّمة، وسجلتها كما أحب؛ رغبةً فى أن تكون بارقة أمل، ربما يكون فيها ما يفيد، بعد أن اعترى البلاد ظلام دامس وغبار خانق وتعصب قاتل.

هذه هى قصة "كيمت"[١] فى فترة من أحلك فترات تاريخها الطويل، يحاول فيها العقل أن ينتصر على الخرافة، مرحلة من أشد مراحلها صراعًا، قصة أزمة الصراع الدائر بين الضدين، وفى ظل المتغيرات الخارجة عن إرادتنا صباح مساء.

كلفنى أحد الأثرياء بكتابتها؛ على أمل أن يزين بها مكتبة قصره الشاغرة!! لم ألجأ إلى هذه الوسيلة أو الحيلة إلا تحت ضغط الحاجة، فى وقت انخفضت فيه قيمة الكتابة والكتَّاب، ليس معنى هذا أننى قبلت العمل فيها مكرهًا، بل إننى إرثى لحال الكتابة والكتَّاب!!!! كم كنت أود أن أكتبها لعشاقها الحقيقيين، لا أن تزين مكتبة قصر يجهل أهله القراءة.

كم عانيت فى البحث فى أصولها التى دونتها على شكل أوراق وقصاصات، وفى كتابتها؛ حتى أصل إلى اليقين، هدفى، وأعتقد أنه هو أعظم ما نفتقد.

١- تعنى "مصر" فى اللغة المصرية القديمة.

وإنْ أصبت فأحمد خنوم العظيم الذى وفقنى لذلك ولا أحصى ثناءً عليه، وإنْ لم أُوفق، فإنه اجتهاد امرىء نال شرف المحاولة ولفت الأنظار، ربما يأتى من بعده منْ يكمل المشوار وينال شرف بلوغ اليقين، لعل وعسى، ربما.

جحوتى نخت
كبير كُتَّاب معبد الإله بتاح
فى مدينة منف العظيمة

أنت خنـــوم الأحـــد الوحيـــــــد الأوحـــــــد
ومـن عمـله تخرج كل يـوم ملاييـــن الكائنـــات
أنت خنـــــوم، التجلى المحســـــوس للـنسيـــم
المحـاط بالأسـرار، الذى مـن عنفـه تتولـــــد
الريـاح الأربـع، ويخـرج كل مـنهـا مـــن المكـان
الـــذى أختـــاره، واحـدة مـــن الجنـــوب، وأخـرى
من الشمـال، وغيرهـا كل يـــوم، مـــن الشـــرق
ومـــن الغرب.*

* نص مصرى قديم.

ما قبل البداية

أين خنوم؟؟؟!!!

أين هو، إننا نبحث عنه منذ زمن طويل. أين نجده فقد طالت غيبته، وكلما طالت اشتاق القلب إلى رؤيته؛ إننا نحبه؛ فكم كان عطوفاً علينا جميعاً. لم يقسُ على أحد. بحثنا عنه فى الألواح.. فى الأوراق... بحثنا عنه فى كل شىء، وها نحن، الآن، نأتيك يابتاح[1] منف[2] العظيم، عسى أن نجد عندك ما يدلنا عليه. أين أنت يا خنوم العزيز؟؟

أحباؤك الحائرون

١- بتاح معبود مدينة منف، رب الفن والفنانين عند قدماء المصريين.
٢- منف هى ميت رهينة، مركز البدرشين، محافظة ٦ أكتوبر.

رخـــت

١

نغبشة العصفور فى جوف الظلام أقلقت مرقدى، أمل الليالى الطويلة ينجلى عن فجر فتىٍّ، له طعم الحب، ودفء العشق، ولذة الاحتضان.

***

الفجر وعالمه الثرى يلوح فى الأفق.

***

منف الوجهة.

أترك أتريب[١] مخلِّفةً ورائى كل شىء، عالماً يمتزج فيه الحب بالمتعة بالثورة.

منف الأمل.

لا تبعد عنا كثيراً، الآن، يستيقظ رخ.

نذهب إلى بتاح فى معبده. بعد أن كلَّت النفس وفشل المسعى فى البحث عنه فى الشمال.

***

الشمس ترسل دفئها الحانى إلىَّ وحدى.

***

أجلس على حافة المركب، وسط المركب يجلس ابنى رخ بشبابه اليافع وقلبه الغض، النوتى يمارس عمله فى منتهى النشاط والحيوية.

***

١- أتريب مدينة بنها بمحافظة القليوبية.

فى الدلتا مولدى.

الدلتا المثلثة، لها طبيعة خاصة، تنعقد عليها آمال كبار فى تحقيق النجاة.

***

على مقدمة المركب، واقفة، أتطلع إلى الأفق.

***

- أريد مقابلة الحكيم فى أمر مهم يتوقف عليه مستقبل البلاد.
- غير مسموح بذلك.
- لماذا؟!
- هذه أوامره؟
- لا تجعلنى أعرضك للعقاب.

اقتحمت الباب ودخلت.

صاح الحارس:

- إلى أينْ أنتِ ذاهبة؟!

جرى خلفى يمنعنى.

لا. لا. أريد مقابلته. وهممّت بضربه.

***

رخت أنتِ جميلة.

رخت أنتِ قويـــة.

هل هو يوم لك أم عليك؟

هل تقترب الدنيا من قدميك، ثم تزهدينها؟

اليوم يومك.

***

كنت أسير فى يد أبى. أتركه، أحياناً، وأذهب أبحث عن أى شىء.

***

فى البدء، تكررت محاولاتى للخروج من البيت واستكشاف الطبيعة حولى علِّى أجد تفسيراً لهذا الكون الواسع. تحيرت كثيراً، لم أيأس. العالم مبهر، تتناثر أجزاؤه بلا معنى... أحيانًا قد يبدو لها معنى.

***

فى صغرى تبدى لى العالم أكبر مما أتصور، كون مذهل حقاً بكل ما فيه من عجائب وغرائب.

***

شخص يسبح فى فضاء لا نهائى. يصطدم بالحب والكراهية على هيئة بشر.

***

بيت أبى، العالم الأول، سبحت فى معانيه، حفظت مساكه وتكويناته... من جدار لآخر... من خدش لآخر... من أصغر معلم لأكبره... كل شىء..

***

فى بيت أبى كل خطوة لها معنى.

***

عطف أبى علىَّ، عوضنى عن فقدان أمى. ماذا كان شكلها؟ ماذا كان لونها؟ هل كانت جميلة، حلوة، أم ماذا؟

ماتت، وهى تلدنى.

ماتت دون أن أراها.

ماتت وتركتنى أصطلى بقسوة زوجة أبى.

***

المعبد أول ما طالعت بعد بيت أبى. له صورة مقبضة؛ تصغير لهذا الكون الكبير! عالم غريب، تحدث فيه الأعاجيب.

رجال منزوعو الشعور والنخوة، قبيحو الوجوه، ملابسهم تثير فى نفسى الضيق والضجر.

***

مبانى المعبد ضخمة عالية، تثير فى نفسى نوعاً من الخوف والرهبة والشعور بالدنو.

***

صغيرة فى هذا العالم، أحاول فهمه، بينما عاجزة أنا عن فهم نفسى!!

***

سألت أبى ذات مساء بهيج:

- الإنسان لا يعرف نفسه، فكيف يُطلب منه معرفة غيره؟!

نظر إلىَّ مندهشاً. يبدو أنه استكبر السؤال على سنى. ربت على كتفى فى حنو. ولم يجب.

***

أسير فى يده، ذات صباح، حنانه يغمرنى؛ الحنان الوحيد فى عالم القسوة. المعبد يطل برأسه الكبير. لم نسر طويلاً. ذهبت إليه أتلقى علومى الأولى. الدراسة قاسية. ملعون قساة لا يرحمون. تفوقى شفع لى.

***

فى ليل له طعم الورد، سألته عن أمى، فتنهد ونظر إلى السماء، وكمن تذكر حلماً جميلاً:

- كانت لى العالم بأكمله.

- كانت جميلة؟

- لم تكن هناك من هى أجمل منها.

***

قالت بغلظة:

- تنظيف البيت وتحضير الطعام أهم شىء، أتفهمين؟

***

الصباح ذو نور وضىء، أشعة الشمس تتعانق مع قطرات الماء لتغزل أقبح قصيدة خيانة، جالس على مقدمة المركب، رأسها على صدره، ضحكت ضحكة ماجنة، وقفت... رقصت، ابتسم ثغرة... انشرح قلبه.

قيل لى كانت صديقة أمى، فكيف حدث هذا؟! كيف تزوجها ونسى أمى؟! أمى؟! أمى الحبيبة التى لم أرها يوماً!!

***

حجرة الطعام مليئة بالأطباق الفارغة، الأوانى متناثرة فى كل مكان، أقف مذهولة، كعادتى كل صباح، أمام المشهد اليومى. الخادمة حمقاء. علىَّ أنْ أفعل كل شىء بنفسى... حتى لا أتعرض للعقاب.

خرجت إلى عمق البيت. انحنيت ألتقط مقعداً مقلوباً أعدله. رنَّت ضحكتها الخليعة فى أذنى تخرقها. أهكذا يفوت الوقت بسرعة ويأتى زمن الحساب؟!

استدرت ناحية الباب، دخلت تتأبط ذراعه. سألتنى:

- الطعام جاهز؟

وقعت المقشة من يدى، هزنى صوتها، ارتعش داخلى، لم أستطع النطق، لم تمهلنى. صاحت فى وجهى:

- يومك أسود، طبعاً تلعبين!

نظرت إلى أبى. لم يتفوه. لم تهتز أى شفتيه. حاول إخفاء ضيقه حتى لا يشى به، قدر استطاعته، يعتصر الضعف وجهه. رغبة النطق تعبث به، الخوف ألجمه.

***

زوجة أبى متوحشة، أخرج من البيت هرباً، أبحث عن لا شىء.

خنوم لا يرضى بهذا الظلم، إنه رحيم وقلبه كبير.

***

سيد الرحمة ورب المغفرة. وصفه الكثيرون بأنه العادل الرحيم صاحب القلب الكبير. تعلقت به منذ الصغر. وكان دعائى يتوجه إليه، وحده، بالخلاص من ذل زوجة أبى، وأنْ يرحمنى من عذابى المتواصل ليل نهار؛ جعلت الدنيا فى عينى سوداء لا أنوار فيها، والدنيا جميلة بالفعل، لا يدرك قيمتها من تعود حلقة طعم المرارة طويلاً.

***

إليه وحده يتوجه حبـــى.

إليه وحده تُرسل صلواتى.

له وحده يخفق قلبـــــى.

إنه المنقذ، إنه المخلص، الوحيد القادر على إنهاء مأساتى بوضع

النقطة الأخيرة فوق كلمة النهاية؛ ليُسدل الستار عن أعظم مأساة وتنتهى الحكاية، ويذهب المتفرجون إلى بيوتهم، لينعموا بنوم هادىء، وأنا كذلك... أرتاح من هذا الحمل الثقيل.

ارتبطت به كثيراً، وهربت من العقاب بسببه كثيراً، كانت زوجة أبى تهمّ بضربى، فأقول لها طلباً للنجاة: "خنوم يرانا". فتسقط من يدها العصا. مع أنها لا تؤمن به كثيراً أو بغيره!!

ألقيت بكثير من همومى وحمولى عليه، نسبت إليه أشياء لم يفعلها، حتى أضمن فى النهاية النجاة.

خنوم

ليس لى سواك.

حبيبتك رخـــت.

موقعة بالدم والدمع.

***

الفصل فصل الفيضان.

والنهر عن آخره، الماء ملمسه مثير، نسمات الهواء تداعب خدى بشقاوة وعذوبة ورقة، الشمس تعزف أجمل لحن يتلاحم ضوؤه الذهبى مع خيوط شعرى السوداء السابحة بين الماء والهواء. قطرات الماء تترقرق فوق خدىً. أفعلها متعمدة. تضحك الخادمة. تترك ملابسى من يديها. تسقط على الأرض من الضحك. أنهرها تعود لرشدها. تقبض على الملابس بحزم. وتجلس على الشاطئ تنظر إلىَّ عابسة فى ضيق. أرقِّرق الماء فوق خدىَّ. أعبث به بيدى. لا تضحك. أناديها: "نفرت". لا تهتم. أكرر الرقرقة حتى لا تقدر على إمساك نفسها؛ فتضحك ضحكة صاخبة.

حياتى فى النهر.

الماء ما أجمل ملمسه. له مذاق ممتع.

"نفرت، راقبى الشاطئ جيداً".

***

الأفق ينفسح على مشهد لا نهائى. تتعانق السماء مع النهر فى وحدة شاعرية، تجلو نفسى وتنير طريقى.

منف تبتلعنى فى دوامتها. مزدحمة بشكل غريب، عامرة بالحياة، تفيض بالحب، ويتنسم، بين طبقاتها العليا، العشق فى أبهى تجلياته، ويفرخ أحلى ثمار القرب.

ليلة حب واحدة.

واحدة فقط.

قضيتها فيها، تركت فى نفسى ما لا يُنسى من روعة ولوعة.

***

قادر على كل شىء.

قادر على أنْ ينير لى طريقى، ويهدينى إلى هدفى المنشود. بوابة المعبد تذكِّرنى بالبدايات، بداية كل شىء، يبدأ أنيقاً جميلاً وينتهى إلى العدم. دخلت مع ابنى رخ، إلى ساحة الفناء المفتوح بلا حجاب. أخبرت برغبتى فى مقابلة الحكيم.

خنوم!

أينْ أنتَ؟

هل من أمل؟

قادر على كل شىء، تعرف كل شىء، حتى ما فى نفسى وإنْ لم أبح به،

أقف أمامك عارية من كل شىء إلا من معرفتى أننى أمامك، صاحب القدرة الخارقة على المعرفة وكشف الغيب وهداية الطريق. بركاتك وهباتك لا تُعد ولا تُحصى؛ فنحن فيض من فيض نعمتك.

خنوم!!

ارحمنى، هبنى بركة من بركاتك أو نفحة من نفحاتك تصلنى بك.

أينْ أنتَ؟!

أتيت إلى الحكيم لأعرض عليه مأساتى وأجد لها حلاً.

***

رخ يصعد درجات منصة التتويج الدائرية بثبات. الكهنة فوقها متحلقون باسمون. يشير الكاهن الأكبر من فوق مقعده، تعزف الموسيقى لحن التتويج. الناس مصطفون على الجانبين يشهدون الحفل، الفرحة تعلو وجوههم، كيف لا يفرحون والفرح فرحى؟!

ترك الكاهن الأكبر مقعده، تقدم باسم الإله، يتوج رخ، وضع فوق رأسه التاج، تاج مصر العليا والسفلى، تاج "كيمت تا مرى".*

الفرحة ينخلع لها قلبى، الدنيا لا تسعنى، رخ سعيد، فى منتهى الفرحة، أحس تأدية واجبى نحوه، أظل بجانبه؛ حتى يأمن أعداءه وينقى دولته.

٢

يوم حافل بالعجائب!!

دخل يتلفت. منظره غريب، شدنى إليه، رأيته فهام قلبى فى ثنايا الذكريات المورقة.

* تعنى "مصر الأرض المحبوبة" فى اللغة المصرية القديمة.

رجل، ولا كل الرجال، فحولته مفرطة، يبدو كأبيس* فى موسم التزاوج، تزداد فحولته فى عينىَّ، لحظة بعد أخرى، فارع الطول، أسمر اللون، غزير الشعر ناعمه..

كأنه وحش خرج لتوه من الغابة.. اشتعلت الرغبة داخلى فى معانقته..

عقلى فى السماء!

جسدى فى الجحيم!

***

تبادلت النظر معه طويلاً. ابتسم. ابتسمت. اقترب منى وجلس بجوارى. فتى له قوة الجبال. يعجبنى هذا النوع من الرجال. أحسست سخونة جسده تسرى فى نظراته تلهب أحشائى. يالك من وحش أليف أيها الرجل، أُريد به الثورة، فاختار الحب عن كل شىء، تعلقت به بشدة. وبعد نظرات مترددة بينى وبينه أفهمها جيداً.

قال لى مقِّدماً نفسه:

- حور... اسمى حور من منديس**... أعمل مساعداً لكبير كهنتها وساعده الأيمن.

أيها الحور اللعين، أين أنتَ من زمان؟!!! أبحث عنك بين الرجال منذ زمن طويل!! ارحمنى فصبرى طال. وأوشكت نفسى على الاستسلام. صدرى يمور بالحب والعنف يملأ رأسى. أريدها ليلة غير عادية. ليلة أولها الهمس والملاطفة والمداعبة وأوسطها العنف، وآخرها اللذة الأبدية والارتواء المطلق.

---

* معبود مصرى قديم على هيئة عجل بالغ الفحولة والخصوبة.

** منديس بلدة فى شرق الدلتا (انظر هامش ص ٤٧).

نفسى ظمأى، وقدراتك لا تُقدر. تفيض وتزيد. ولـنْ يقـف فـى طريقها سد مهما طال ارتفاعه. ماء النهر لا يرحم، يأخذ فى طريقه ما يعترض مجراه.

قلت مرحِّبة به:

- مرحباً.

ابتسمت وأردفت أقدِّم نفسى مثله:

- اسمى رخت من أتريب... تعلمت الكهانة فى الصغر واحترفت السحر فى الكبر (وأشرت إلى رخ) وهذا ابنى رخ...

قال متظاهراً بالدهشة:

- ابنك! توقعت أنه أخوك الأصغر.. لا تبدو عليك آثار الزواج أو متاعب الحمل والولادة.. (ونظر فى عينىَّ) أنتِ جميلة لم تدخل دنيا..

ماذا تريد منى يا حور الجميل؟ تحاول الانقضاض وبأقصى سرعة؟ أفهم نبض نظراتك...

أنا وأنت على خط عمل واحد. هنيئاً لنا سوياً... يبدو أن الاكتمال والذوب فى الآخر حتى الفناء قادمان لا محالة... حور لا تعبث بقلبى الغض. ضعيف لا يتحمل وقع ضرباتك القاسية.

حور، العشق أوله النظر، وثانيه الملامسة، وآخره الاندماج والذوب. فهل أنت قادر على المواصلة؟ الطريق شاق، تفترشه الورود والأشواك؟

قلت أدارى خجلى:

- يالك من مجامل كبير!!!

نهشتنى عيناه السوداوان البَّراقتان وهو يقول:

- إنها الحقيقة – شرف عظيم لى؛ أن أرى الكهانة والسحر مجسدين فى أنثى... وأنثى جميلة.

لنْ أقدر عليك يا حور الجميل. متمرس على إيقاع النساء فى شراكك العنكبوتية لماذا كل هذا؟؟! أتريد أنْ تصل بسرعة؟! منهياً آلاف السنين من الرغبة؟! مغامر مجنون! الجنون والمغامرة أروع ما فيك – اصبر حتى يتهيأ لنا الحال... أرى العطش فى عينيك... يقابله نفس القدر فى نفسى وقلبى وصدرى وفىَّ ككل... الحب قادم لا محالة، فاصبر حتى يأتى الميعاد... حتى ينهمر المطر، فيه الحب ينمو ويزدهر، ويضمنا تحت جناحيه، والعشق فى ثناياه، ونعزف معاً لحن معرفتنا بقدرته على إرواء الأرض الجدباء بماء الحياة وتطهيرها من الجوع والحرمان... اصبر يا حور اصبر... واصبرى يا رخت... اصبرى...

تلعثم لسانى وأنا أردّ:

- أشكر لحور حسن بيانه... أنتَ كثير المجاملة.

- ماذا يصنع ابنك؟

ماذا حدث يا حور؟!! هل ضايقك ردى؟ لماذا انتقلت إلى محطة أخرى دون أنْ تكمل الأولى؟ من أجل ماذا؟ انتقلت على سبيل المناورة أو ضقت بأهلها؟

قلت بأسى حقيقى:

- لا يفعل شيئاً. حاولت تلقينه العلم فى الصغر فلم يفلح...

صاح متعجباً:

- غريب أمره حقاً! أنْ ينبع الجهل من نبع العلم هذا المستحيل عينه!! بل غريب أمرك يا حور! ماذا حدث؟! والمستحيل هو ما تفعل!!

أمنَّت على قوله:

- قدر يا عزيزى حور، ما أقسى قرارات القدر!

تساءل:

- اسمه...؟

سريعاً نسيت اسمه؟! إذًا لن تذكرنى لو فارقتك للحظة... ما دمت فى أحضانك تذكرنى. ومتى فارقت دفء جسدى، أو إنْ مرّ أمامك شبح أخرى نسيتنى لتوك!!

بضيق واضح أجبت:

- رخ

متأملاً الاسم:

- رخ!! رخ!!... اسم جميل..

اسمه جميل كوجهك الجميل. قلبى يهفو إليك. لا يقدر على البعد. أذبه فى نيرانك الحامية. أذقه نبض عذابك. امنحنى الدفء فى عز الشتاء.

متوددًا:

- رخت، هل أكون متطفلاً لو عرضت عليك مشكلتى؟

مشكلة؟! أهناك مشكلة إذًا؟ قل يا حور ولا تخف. سرك فى بئر عميقة لا يصلها إلا المحترفون من الرجال. قلت مرحبة:

- بكل سرور

مفصحاً عن نفسه:

- أننى لم أجىء إلى هنا إلا بعد أن فاض بى الكيل.

يبدو أنها مأساة حقيقية. سقطت على كنز يا رخت. قل يا حور الجميل ولا تخف.

تظاهرت بالسذاجة:

- كيل؟! أى كيل؟

ألقى بحجر ضخم فى بحيرة آسنة حين قال:

- ضقت ذرعاً بالبحث عنه...

ارتجف قلبى.

استدرك:

- خنوم هذا مشكلة كبرى.

خنوم!! المأساة واحدة. هل تتحد التجربة الإنسانية إلى هذا الحد؟ أيصل الكمال مرة واحدة ودفعة واحدة. ودون أدنى مواربة؟! الحظ يخدمك يا رخت، ويدفع إلى طريقك الهدف ممزوجاً باللذة وشلالات المتعة، أم يستخدمك؟

تظاهرت بوقوع المفاجأة:

- خنوم!!

استأنف:

- أجل خنوم. قلبى مشوق إليه... أحبه بكل ذرة فى كيانى.. ولنْ أرضى عنه بديلاً.. إننى حبيبه وهو حبيبى.

الحب، رحيق الحياة، سلطان الوجود. أفضل شىء فيه. خنوم.. الوحدة والطريق. خنوم.. الأمل والألم. خنوم.. الحلم والمأساة. خنوم.. الصحبة والرفيق.

استدرجته أكثر:

- أكمل يا حور فإنها تبدو مأساة حقيقية.

زافراً الألم من صدره:

- بحثت عنه فى الشمال فلم أعثر له على أثر.. أى أثر. ترك الشمال كله ورحل. أينْ هو؟! لا أدرى.

كلنا لا ندرى. المهم منْ يدرك الوقت المناسب وينقض على الفريسة ولا تملك حراكاً وتسلم بالنهاية. النهاية!! الحلم والحقيقة!!

غرقت فى تفكير عميق. صحوت منه على صوته يصيح:

- سيدتى رخت.. رخت.. أين أنتِ؟!

أنت السيد، الملهم، أنتَ العازف وأنا القيثارة.. أتلوى بين أصابعك كما تشاء.. أكمل يا حور. أكمل ولا تخف. قلبى يحتضنك بين راحتيه. لا تخف. اقفز مهما تقفز. أنت بين يدىَّ.

غمغمت:

- هه.. هه.. لا شىء.

حاول أنْ يعرف شيئاً:

- لا بل هناك شىء.. وشىء قوى..

أجل شىء قوى.. ملأ الوجود سحره.. خصوبتك الطاغية.

قلت كأنى أحلم:

- ذكَّرتنى بواقع جميل كنت أعيش بين ظلاله.

سألنى بأدب جم:

- هل من حقى أنْ أعرفه؟

ستعرف كل شىء فى حينه، حينما يلاصق جسدك جسدى، وتتماهى الحدود والمسافات بيننا، وتشتعل الشرارة المقدسة معلِّنةً عن أول معركة فى التاريخ بين الرغبة والعقل، بين مفرطى العشق...

همست بهدوء:

- ستعرف فى حينه.

خرج صوته عميقاً بالحزن والألم:

- اليوم أجىء إلى الحكيم عسى أنْ يدلنى على أى شىء. وأنتِ ما سبب قدومكِ إلى هنا؟

قدومى إلى هنا قدوم إليك؛ حتى تهدأ نفسى المحرومة. تلهب شفتاك شفتىَّ. ويحملنا الهوى على بساطه؛ ونحلق فى سماوات علا من العشق والهيام ونطفىء الحيرة والعطش داخلنا.

قلت مراوغةً:

- إننى أعشق زيارة معابد بلادى كلها، خصوصاً معابدها الكبيرة.

عقب مستسلماً:

- الأمر يتعلق بك إذًا؟

بل يتعلق بك أنتَ. أنتَ ولا شىء غيرك. ما أتيت هنا إلا من أجلك أنتَ. لا أدرى ما الذى دفعنى إلى هنا. له فعل السحر وقدرة الحلم وقوة الأمل.

تظاهرت بالاضطراب:

- أنا.. أنا.. لا شىء (وبحركة تمثيلية) إنه قلبى وهواى يأمران وأنا أنفذ.

سألنى بلهجة مغايرة:

- أهنالك أحد معين تريدين مقابلته؟

لا أحد سواك، منذ ملايين السنين ارتبطت الأرواح بعضها ببعض. وكنا أنا وأنت أولها. نسمو فوق الوجود ونحطِّم بتلاحمنا وتواصلنا عبر فراش العشق العبق، الفناء والعدم.

قلت بوضوح:

- الحكيم.

صاح من فرحته:

- يا محاسن الصدف، وضعنا القدر فى طريق واحد.

أجل طريق واحد اصطفت على جوانبه الآهات، وافترشت ساحته المتعة، ورفرفت عليه أغانى ونشوات الجسد.

عقَّبت:

- سمعت عنه كثيراً.. منذ أمد بعيد.. أتوق شوقاً إلى رؤية وجهه الكريم والطرب بدفء حديثه.

قال مصدقاً:

- حب العلم فريضة.

بل حبكَ هو الفريضة.. بل أولى وأحلى الفرائض، منذ نطق الإله وخط أولى كلماته بالحب، يا حور الجميل.

٣

سألت حور:

- يبدو هناك سر خفى وراء اهتمامك الكبير بخنوم؟

فضحك مراوغاً وأردف:

- انه اهتمام كهنوتى ليس إلا.

لا تريدننى أنْ أعرف.. سوف أعرف.. أنتَ بين يدىَّ.. فلا تقلق.. ولا تعجل.. فى صدرى تكمن الأسرار.. بين نهدىَّ.

أحكمت الخناق حوله:

- لكنى أعرف كثيراً من الكهنة ليس لهم نصف اهتمامك هذا؟

خرج فاراً من الشرك:

- سيدتى صدقينى إنه اهتمام بسيط كما سبق أنْ ذكرت.

بسيط؟ أنت لست سهلاً. ماكر لئيم. ستكون نهايتك على يدى بالعشق أو بالهجر.

تخلى رخ عن صمته الأثير وتدخل فى الحوار:

- دعيه يا أماه. يبدو أنه يحب خنوم مثلنا.

عبيط يا رخ! ستظل عبيطاً إلى الأبد. مأساتى فيك كبرى ولا تُقدر. خنوم ألهمنى الصبر والسلوان؛ فهذا صُنع يديك.

تمتمت بلا اقتناع:

- أجل يا بنى، خنوم كثير الأحبة.

***

طالت ليلة المساء. نقضى ليلتنا فى انتظار مقابلة الحكيم. أردت قطع الوقت بالحديث، فسألت حور:

- كيف كانت رحلتك، وهل كان الطريق سهلاً؟ وكيف كانت وهى ضد التيار والفيضان على أشده؟

قال والزهو يملؤه:

- سيدتى المنديسى* لا يعجز عن رحلة فى النهر، بيته الصغير، لا تزيد عن ربع مسافة الحج إلى أوزير.**

ثقتك عظيمة فى نفسكَ وثقتى فيك أكبر، ولنْ تعجز عن إرواء امرأة مشتاقة مثلى، أعلم هذا. حاستى الأنثوية لا تخيب فى تقدير قدرات الرجال. لم تخب يوماً.

---

* المنديسى أى المنتسب إلى بلدة منديس.

** أوزير أو أوزيريس إله الموتى عند قدماء المصريين، وسيد الأبدية والعالم الآخر، زوج إيزيس ووالد حورس.

قلت أزيده غروراً:

- ثقتك فى نفسك بلا حدود.

رد وغروره جاوز المدى:

- ليس الأمر أمر ثقة، فهى فىَّ مغروسة.

قلبى خائف عليك. أخاف فقد الذكر بعد أنْ تعبت الأنثى طويلاً فى البحث عن ذكرها الأثير.

قلت راغبةً فى استمرار الحوار مع حور الجميل:

- الحياة هنا فى منف بعد انتقال العاصمة إلى طيبة أصبحت أمراً عسيراً.

اعترض:

- لماذا؟! ما دام بتاح ينشر حمايته ويسبغ فضله عليها. إنها منف العظيمة.

بتاح من؟ ومين[١] من؟ ومونتو[٢] من؟ أمازلت تؤمن بهذه الآلهة التى لا تنفع ولا تضر. زمنك قديم مثل روحك القديمة.

قلت محاوِّلةً إرضاءه:

- أجل لبتاح فضل كبير غير منكور فى القدم، لكن سيطرة آمون[٣] الآن سحبت البساط من تحت قدميه.

١- مين إله الخصوبة عند قدماء المصريين.

٢- مونتو إله الحرب عند قدماء المصريين.

٣- آمون إله الدولة الحديثة وسيد طيبة والعالم القديم، وسبب النصر على الأعداء، يعرف بـ "الخفى"، ربط بينه الإغريق وبين إلههم الأشهر "زيوس" وساووا بينهما.

امتقع وجهه. لم يعجبه الكلام؟ لم ينطق. حاول رخ الحديث معه. فلم يفلح فى محاورته وإخراجه عن صمته. أحسست بنفوره من رخ! رخ وديع، هادىء، مسالم!! فملت عليه أنصحه بالصمت. حتى يأمن عواقب هذا المغرور.

***

طال الوقت!!

لماذا لم يؤذن لنا بالدخول؟ يا خنوم لا تعبث بنا هكذا حتى فى لقاء من أجل البحث عنك، حتى فى لقائنا القديم لم تخل من عبثك الأثير! ارحمنى. فما تزال دموعى فوق خدىَّ لم تجف. انهض وارحمنى من مأساتى. انهض؛ لنصرتى. بعد أنْ أهدرت كرامتى. انهض. يبدو أنه مقضى عليك بالاختفاء إلى الأبد.

ماهر أنت فى الاختفاء. فكان السعى وراءك.

٤

هبط الدرج الصغير فى نهاية الفناء كاهن ضخم. دُهشنا لمنظره، وحملقت فيه العيون، اقترب منا قائلاً:

- سيدى الحكيم فى انتظاركم.

الحكيم فى انتظارنا، شىء لا يُعقل!! قادنا، بالفعل إلى حجرة الحكيم.

***

الأضواء تنتشر على جانبى الممر الطويل فى كوات جانبية، روائح عطرة تفوح من ثنايا المكان، الرهبة تغزو نفسى، فلا صوت يعلو ولا

نفس يصدر، الحكمة فى شخص سوف نلتقيها، أمل كبير عشت أحلم به طويلاً منذ عرفت القراءة، الحكيم، مرة واحدة، أقابله؟!! شىء ولا فى الأحلام!!

***

أهل مدينتنا يهتدون بهديه، ويحفظون أقواله، ويصلون إلى الإيمان عبر نفحاته وعظاته الطيبة. رجل عظيم، فاقت أخلاقه وأفعاله أخلاق البشر وأفعالهم، واقترب من صدق النبوءة وأمانة الرسالة.

***

وقفنا أمام الباب ننتظر حتى يؤذن لنا بالدخول إلى حضرته العلوية. التفت إلى حور، وجدته كعهدى به فحلاً هائجاً بالحب والثورة. رخ غارق فى عالمه الغيبى المفضَّل.

***

وقعت يدى، فى مكتبة المعبد، ذات صباح مشرق، على بردية التعاليم الكبرى التى ألفَّها الحكيم، مخطوطة بخطه الجميل، النسخة الأصلية، التهمت سطورها فى دقائق معدودات، وحفظتها عن ظهر قلب فى يوم واحد. زاد طولها عن عشرين متراً من البردى الجيد النوع والصنع.

.....

الحب هو عين الحياة، والكراهية هى مقت الإله.

الإله يحب منْ يحب الحياة، ويكره منْ يكرهها.

العلم من الوجود الأول إلى الوجود الثانـــــى.

العطاء دليل الوجـــــود.

لا قيمة للإنسان بدون عمل.

العلم أساس كل تقـــــــدم.

لا معنى للحياة دون إيمـــان.

الرجل والمرأة متكامـــــلان.

.....

تعاليم كثيرة جميلة ومفيدة. نفعتنى فى حياتى ومازالت.

***

فُتح الباب. انبعث الضياء يغمرنا. وفيض العطر يطربنا. تقدم حور نحو الداخل. تبعته ورخ. غاصت أقدامنا فى رحابة الكساء الأرضى، سرنا فى هدوء، تكاد أقدامنا تتوقف عن السير، الرهبة تسكننا. مكان عجيب غريب، حيوانات محنطة تملأ جنباته: غزال، صقر، عقاب، تمساح، قط، ثعبان تقطعه سكاكين. وجهَّنا نظرنا نحو الحكيم. يتصدر مجلسه آخر الحجرة. نور عميق من عينيه الصافيتين شملنا فى جوفه.

جاء صوته هادئاً، معلِّناً توقف الدرس. أشار إلى تلاميذه. انصرفوا. ألقينا عليه التحية. فردها بأحسن منها. عرفَّناه بأنفسنا. فرحب بنا. وأشار لنا بالجلوس. سألته بعد أن جال فينا بصره الثاقب.

- يا سيد الحكمة، لماذا كل هذا الشقاء الإنسانى الذى نواجهه؟

دون تفكير:

- فى سؤالك تكمن الإجابة؛ نابع من الإنسان ولا شىء غيره.

كيف فاتنى ذلك؟!

عرضت عليه مأساتنا:

- ترك الشمال ورحل. كانت نسماته تريق فى الوجود إيماناً ورضاً.. اختفى واختفت نسماته، فأينْ هو؟

رد على الفور:

- تقصدين اللغز.. المحيِّر.. خنوم؟

- دون شك.

هو مشكلة حقيقية. لا أحد يدرى أينْ هو. كثيراً ما نعمت بلحظات مختلاة معه. ألتمس منه النصح والإجابة، كان يهبنى ولم يحرمنى قط، أحببته بشدة.. أهدى إلىَّ طريقى.. الآن، لم أعد أراه أو أسمع به، أو أسمع حتى عن أحد رآه أو أختلى به.. يبدو أنه ضاق بنا وبأفعالنا فذهب.. ذهب إلى غير رجعة.

لقد اختلى بى، ألم تسمع بذلك؟! كيف يفوتكَ ذلك؟! وإلى غير رجعة كيف؟! هكذا سوف يضيع ما خطَّطت. لا بد أنْ أجده. لا بد أنْ أجد حلاً لمشكلتى. تركنى دون حل لها.

تساءلت بأسى:

- إلى غير رجعة، كيف؟!

- أحيانًا، كان يضيق بما حوله، فيترك العالم كله يتناحر، ويمشى، يدعه لشأنه، ما داموا قد استغنوا عنه، حتى يوقنوا أنْ لا نجاة منه إلا إليه، فيعود، يعود عندما يشعر أنهم عرفوا قيمته كاملة، ولنْ يغنبوه حقه.. يبدو أنه سئم الإصلاح إلى الأبد.

إلى الأبد؟! هذه هى المأساة الحقيقية، لا بد أنْ يظل الإيمان به كامناً فى النفوس حتى أصل إلى ما أصبو إليه. وليكن بعد ذلك ما يكون.

قال حور محتداً:

- كلام سيدى الحكيم يثير الشك فى وجوده ويسربه إلى قلوب الباحثين عنه!

رد الحكيم بهدوء:

- لا شك فى وجوده بالمرة، إنما وجوده فـى الشـمال أصـبح أصـعب مـن الحصول على خشب"ون آمون"* ألا تتفقون معى فى ذلك؟

فى صوت واحد:

- بلى يا سيد الحكمة. التجربة تبرِّهن على صدق قولك.

بعد صمت جابت معه عيناى فضاء الحجرة الفسيحة. البخور منثور على نار هادئة. يضفى على المكان جواً من السحر والقداسة. قال:

- عليكم إخلاص النية فى البحث عنه أولاً، حتى تصلوا إليه، إنه لا يحفل إلا بأصوات الصادقين من مريديه.

الإخلاص موجود. فهل هو موجـود؟ ارحمنـى يـا خنـوم. فصـدرى مبلـل بلعابك وعرقك ودموعك.

رغبةً فى المعرفة تساءلت:

- تقصد نتجه إلى الجنوب، يا سيد الحكمة؟

- فى الشمال لا وجود له. ربما يكون قـد رحـل إلـى إلفنتـين أحـب بقـاع الأرض إلى قلبه (جسدى أحب بقاعها إليه. أحب شىء).. أو فيله.. أو.. أى مكان آخر. (بصوت أرتفـع نبـره) ضـاق عقلـى بأفعالـه واستعصـى علـىَّ تفسيرها.. وسلمت فى النهاية بأنه كـان حلمـاً جمـيلاً لا يلبـث المـرء أنْ ينساه بمجرد الصحو من النوم.

انفعل حور. وصاح صياحاً لا يليق بحضرة الحكيم:

- كلامك يا سيد الحكمة يحطِّم الأمل فى البحث عنه.

---

* سوف ترد قصته فى الفصل الثالث.

لم ينزعج الحكيم من صياحه. وقدَّر موقفه. ورد بهدوئه المعتاد:

- ليس بالضبط، لا بد لمنْ يبحث عنه من عزيمة قوية وإرادة عفية وإيمان لا يلين. لا يثور لأتفه الأسباب مثلما أنتَ ثائر هكذا.

فرحت فى حور المغرور. وسعدت بتأنيب الحكيم له. أحرج حور. صمت ولم ينبس بكلمة واحدة. وقلت منهية اللقاء:

- أخيراً، بما ينصح سيد الحكمة؟

- الجنوب، ولا شىء غير الجنوب.

الجنوب. الجنوب. لا شىء غير الجنوب. آه إنْ لم يكن هناك! سوف تكون المأساة عظمى وبلا حدود.

همِّمنا بالخروج. قال الحكيم:

- انتظروا قليلاً.

فرحت ماذا يريد؟ أهناك شىء جديد يود إضافته، يساعدنا فى رحلة البحث المضنية عنه؟ ربما. لن نخسر شيئاً. ليكن الانتظار.

مال على أحد الرجال خلفه. غاب الرجل فترة قليلة. عاد ومعه شخص تشع منه المهابة. شاب يبدو عليه الذكاء، امتداد لهذا الحكيم العظيم. لما رآه الحكيم قال مرحباً به:

- سيا.. سيا.. تعال يا سيا.

تقدم سيا. وانحنى على يد الحكيم ليقبلها. سحبها الحكيم بسرعة غير ملحوظة وربت على كتفه فى حنو. وقال مقدماً إياه:

- سيا أرقى عقل عندى وأطهر قلب.

نظرت إليه فأكبرته فى نظرى. ونزلت كلمات الحكيم منزلها من نفسى. لمحت حور غير منسجم لرؤيته. يبدو أنه غار منه. رخ عاد من عالمه السرى.

أردف الحكيم:

- سيا أحب تلاميذى إلىَّ.

تلميذ نابغ فى مدرستك الراقية، أيها الحكيم.

رحبت بسيا. وكذلك رخ. بينما حور صامت شارد متضايق. قال الحكيم:

- معكم سيا يسمع ويرى.

إذًا سيأتى معنا. أعين لنا أم علينا؟ مساعدة منه أم له؟ لا بد من الحذر.

- اعتبروه أنا.. هو أنا وأنا هو.. لا فرق بيننا.. استشيروه فى كل شىء، فى رأيه الصواب غالباً.

نظرت إلى سيا، ثانية، أتحقق من كلام الحكيم. سيا هادىء. متزن. نظرات عينيه مستقرة مطمئنة. متنبه. يقظ. واع بكل ما يدور حوله.

- يذهب معكم إلى الجنوب. أوصيكم به خيراً.

خيراً؟ إنْ شاء الإله خيراً. الخير كل الخير. لا تقلق. أيها الحكيم!!

قال وسيا فى مواجهته:

- سيا.. أوصيك بهم خيراً. هم أناس طيبون. جاءونى من الشمال بحثاً عن المحير.. خنوم.. كن لهم خير عون يا سيا.

انحنى سيا يقبِّل يد سيده الحكيم. لم يسحبها هذه المرة. أهى من أصول الوداع؟ قبَّله وصافحه. تحرك سيا وفى عينيه يلمع الحزن وتطل بوادر دموع كالأطفال اليتامى لفراق سيده. ونحن نهِّم بالمغادرة، نادى الحكيم:

- سيا.. تعال.. يا سيا..

توقفنا.

- أريد سيا وحده.

٥

خرجنا. وخرج كل منْ بالحجرة. وبقى الحكيم وسيا. الهواء على أشده يعربد فى فناء المعبد المفتوح فى عمق الليل.

ماذا يصنع الحكيم مع سيا؟ يدبران أمراً ما؟ بالتأكيد. حور لا ينطق. يبدو عليه الضيق واضحاً. رخ عاد إلى عالمه الغيبى بسلام. أخذنى حور من يدى، قست يده على يدى، شعرت ببدء الرحلة بيننا، اشتعلت الشرارة يا حور مبكراً، مال بى إلى أحد أركان الفناء. جاء صوته غاضباً لم أسمعه يتكلم هكذا منذ عرفته:

- لماذا وافقت على مرافقة سيا لنا؟ أنتِ كنتِ ضميرنا؟

أهذا ما يضايقك أيها الحور الجميل؟ أتخاف علىَّ منه؟ لا تخف. أتغار؟ لا تغر.

أجبت بهدوء:

- أوامر الحكيم. وأوامر الحكيم لا تُرد.

صاح منفعلاً:

- إنه عين علينا.

قلت مهدِّئة له:

- لا تخف. سنستخدمه، لنْ يستخدمنا.

جاء سيا من بعيد يقول:

- معذرة لو كنت تأخرت.

قلت مرحِّبةً:

- لا شىء يا سيد سيا.

عيناه تشعان سحراً غريباً يكتنفه الغموض.

- لا داعٍ للكلفة بيننا. إننا أصدقاء. أليس كذلك؟

- أجل.

- ما اسمك؟

ألم يقله لك الحكيم؟ راوِّغ يا سيا راوِّغ.

افتعلت الهدوء:

- رخت.

- اسم جميل (موجهاً حديثه لحور) واسمك؟

لم يرد حور عليه. لم يلتفت إليه. لم يعره اهتماماً. رددت نيابة عنه إنقاذاً منى للموقف:

- حور.

- والغلام؟

- رخ.. ابنى.

- أهلاً وسهلاً.

بعد صمت وسير أوشكا بنا على الخروج من المعبد، قال سيا:

- معكم مركب أم ستستأجرون مركباً؟

قلت متصنِّعة التودد:

- سنستأجر مركباً.

٦

خرجنا من المعبد إلى الميناء. الميناء مضاءة بالليل. فنار كبير يعلوه مصباح أحال السماء إلى نهار واضح الضياء. يُهدى السفن البعيدة إلى

موقع الميناء، قرباً وبعداً، فى ظلمات الليالى التى يغيب فيها القمر ويرحل إلى عشه الأبدى.

الميناء مزدحمة بالمراكب من كل نوع.. من كل حجم.. من كل مكان. هبطنا إلى الشاطئ. لفت نظرى وجود مركب جميلة، شدت إليها بصرى، وشرحت صدرى، أردت لرحلتنا أنْ تكون على ظهرها، جعلتهم يقتربون منها، دون شعور، توقفت أمامها، توقفوا، لمحت شخصاً ما ينام أعلاها ناظراً إلى السماء، وشخصين يرقصان فوقها. صاح الشخصان لينبهاه بوجودنا. اتجه بصره نحونا. قفز لتوه. لا أدرى كيف كان إلى جوارنا. قدَّم نفسه لنا عارضاً خدماته: "عنخ.. ملاح أباً عن جد.. قضيت عمرى فى الملاحة سواء فى البحر أو فى النهر.. أعلم النهر وأصادق أمواجه وأمواهه.. وأعلم طرقه ودروبه السهلة والوعرة...".

خرج حور عن صمته الطويل حتى يخلِّصنا من ثرثرة الملاح التى لا تنتهى: "وهو كذلك أنت ملاحنا". فرح عنخ وكاد يطير من الفرح. قفز من الأرض للمركب فى قفزة جنونية يمهِّد لنا الصعود. صعدنا إلى المركب.

نظراتنا إلى النهر، لا تشبع، المراكب كثيرة، حركة الشحن والتفريغ على أشدها استعداداً للرحيل فى الفجر، مراكب ذات أشرعة مفرودة يعبث بها الهواء كيف شاء، ويشق بعضها طريقه نحو الجنوب، نحو الهدف، الحلم المرتجى الجنوب! الجنوب! والبعض الآخر قادم من الميناء أو متجه إلى الشمال فى رحلة أبدية لا تنتهى. وأخرى ذات أشرعة مضمومة راسية إلى الشاطئ.

نسمات الميناء منعشة، منظر الأهرام فى الغرب يبعث فى النفس الهدوء والسكينة.

شوقى إلى الرحيل لا يُقدر.

رحيـل يصـلنى بـه. رحيـل يسـبِّب وصـالاً ويقطـع جرحـاً ويقـيم فرحـاً ويديمه. قلبى لا يخدعنى أبداً. سوف أصل إليه. سوف أصل بكل تأكيـد. منْ سعى وصل.

***

سأل عنخ:

- الإبحار الليلة، أم فى الصباح؟

الآن يا عنخ، لا تضع الوقت، مضى وقت كثير بـلا طائـل، أريـد أنْ أصـل بأقصى سرعة وإلا حطمت ما يقف فى طريقى ويعترض مجراى.

لم يرد عليه أحد، فقلت:

- ما تراه مناسباً يا عنخ، أنتَ أعلم بأحوال الملاحة والنهر. قال ممتناً:

- الإبحار ليلاً ممتع.. والريح فى صالحنا.. فلا داعٍ لتفويت الفرصة.

أنتَ أيضاً تبحث عن فرصة؟! وما الفرصة التى تبحث عنها إذًا؟

قال عنخ:

- شن.. رن.. استعدا.

انتفض عنخ يأمر مساعديه بالإعداد للرحيل. دبـت فـى المركـب حركـة غيـر عاديـة. وقـف عـنخ علـى مقدمـة المركـب، قـرب الصـارى الطويـل الضخم.

حور صامت مكتئب.

سيا يتأمل بهدوء.

رخ سعيد.

تجربة جديدة عليه. يخرج لأول مرة فى حياته من مدينته الصغيرة إلـى

منف العظيمة ذات الأبواب المتعددة والبشر الغفيرة والمبانى العالية والميناء الضخمة. يخرج إلى الجنة، يا للأسف يا رخ لم نمض وقتاً طويلاً بها. أعدك أن يكون حفل تتويجك بها. وأن يكون رائعاً لم يحدث لملك من قبل ولنْ يحدث من بعد.

قال عنخ:

- حِل يا شن.

نزل شن إلى الأرض فى لمح البصر. ترك رن ما فى يده. ووثب على الوتد المربوطة فيه المركب. حاول رفعه قبل شن. لم يتركه شن يرفعه. تركا الوتد وتشاجرا معاً. قفز عنخ إلى الأرض يفض الاشتباك. وأخذ يكيل لهما الضربات سوياً. وسحب رن من يده وصعد به إلى المركب. رفع شن الوتد سعيداً بانتصاره وقفز إلى المركب وسحب السقالة لأعلى المركب. ورن ما يزال يبكى. وشن يخرج له لسانه ملء فمه. صاح فيهما عنخ: "لا داع للمزاح السخيف أمام الضيوف".

قال عنخ مصالحاً رن:

- رن ارفع الخطاف.

ضحكت مما يحدث. سعد رن ومسح دموعه بيديه. وفى منتهى الحيوية، اتجه إلى مقدمة المركب، وأمسك بسلسلة ضخمة وجذبها نحوه فدوى صوتها مقلِّقاً الماء الساكن. لم يقدر على رفعها وحده. قال له شن: "أساعدك". صرخ صائحاً: "لا". قال له عنخ: "دعه يساعدك يا رن، الخطاف ثقيل". قال متحدياً: "لا". صمَّم أنْ يخرجه من الماء وحده. سعيدة لحماسه وتحديه، ورغبت من كل قلبى أنْ ينجح. أحب التحدى. أمسك بالسلسلة وأخذ يجذبها نحوه. أخيراً صعد الخطاف الضخم من قاع النهر. ربطه إلى مقدمة المركب.

أشار عنخ إلى الصارى. تقدم الاثنان محاولين تسلقه. ضرب شن رن. صاح فيه عنخ: "دعه يا شن". غضب شن. لم يكذِّب رن خبراً. تسلق الصارى بسرعة فائقة وبدأ فك رباط الشراع. نزل كما صعد فى سرعة خاطفة. أمسك أحد الحبال وجذبه مرة واحدة إلى الوراء. اهتز الشراع. عبث به الهواء. امتلأ به. صارت المركب تحت رحمة النهر. أصبحت أسيرة هواه. لا شىء يصلنا بالبر، أصبحنا والنهر شيئاً واحداً متجانساً. ما يجرى عليه يجرى علينا.

الوحدة الأبدية مع الإبحار بلا نهاية.

***

وقف عنخ على الدفة، وشن على الشراع والحبال، ورن على مقدمة المركب يرقب اتجاه الريح.

بدأت رحلة الإبحار الليلية.

***

جلست أراقب النهر فى الليل بهيام متناهٍ. بينما اصطحب عنخ الباقين إلى حجراتهم، لينعموا بنوم هادىء بعد يوم شاق. المركب تسير وتعمِّق سيرها وسط النهر.. المركب تغادر منف وتبعد عن المدينة.

الإبحار متعة.

والترحال ممتع.

والبحث عن المجهول أمتع.

٢

مين في أخميم

حـــور

١

منديس* وداعاً!

قلبى الخافق بالعشق دوماً!

رحيق الزهور، نسمة الهواء المعانِّقة لسحب السماء البيضاء، تيار من الأحلام المنعشة، فيض من الذكريات المورقة، وشعاع الضوء المغسول بقطرات الندى كل صباح.

***

رؤية ثملة بالأحلام. فى إغفاءة الليل الحالمة قبل بزوغ الفجر، دبت شبه همسة داخلى، ترددت أول الأمر فى حقيقتها، حسبتها خاطراً لا يلبث أن يزول.

ينطلق الليل عدواً، يلقى بسدوله، جاثماً، عند قدمى الفجر، فى اللحظة الغارقة بين عتمة الليل وضوء الفجر تسلل إلىَّ شعور خفى لم أتبينه.

ضياء ينبش ظلمة الفجر العاشقة. يقظة غير متراتبة. علىَّ أنْ استيقظ. العمر يبدأ صغيراً تماماً كالضوء ويأخذ فى النمو حتى نقطة النهاية.

عليك أنْ تصحو يا حور.

الفجر لائح.

***

* منديس هى تل الربع وتمى الأمديد، شمال شرق السنبلاوين، محافظة الدقهلية.

فى الأفق الشرقى، انبثق نبع ضياء، راح يرسل أشعته الفضية مبدِّداً الظلام.

***

تمتد جذورى إلى أعمق أعماق منديس. هذه المباركة. مدينة خنوم منها أبى وجدى وأصلى. ذكر لى أبى أنْ جده الأعلى، كان يخدم فى معبد خنوم العظيم، فى عهد الملك زوسر[1] صاحب الهرم المدرج الشهير.

***

وغريب أمر زواج أبى؛ تزوج صعيدية!! ولم يتزوج منديسية كما هو متبع. مع أن أبى منديسى أباً عن جد!!

***

وما أذكره، عن أبى فى شأن زواجه، أن أمى كانت ابنة خالة له، تزوجت، وارتحلت مع زوجها الصعيدى إلى موطنه. وأنجبت جدتى ولداً – أبى، وأنجبت أختها الأخرى بنتاً – أمى. وقررت الأختان بعد ذلك أنْ يقترن الابن بالابنة حين يكبران ليصلا ما انقطع وصله عبر السنين الطويلة. ولما حان الوقت، لم ير أبى غضاضة فى ذلك ورحب بكل سرور. فقد كان يميل إلى ابنة خالته، عبر الزيارات القليلة التى تمت بين الأختين، وكان لها أيضاً نفس الميل.

(١) سوف يرد ذكره مفصلاً فى الفصل السابع: "الأمل فى إلفنتين".

لم تكن الأختان تعلمان هذا. فظنتا أنهما ربما بهذا الزواج قد يجبران الفتى والفتاة على زواج غير مرغوب فيه منهما وخشيتا معصية الإله العادل فى سمائه، ولقاءه والوقوف بين يديه يوم الحساب فى محكمته الموقرة.

وحاولتا الإصلاح. فلما علمتا الحقيقة كانت سعادتهما غامرة وتم الزواج بمباركة الإله العظيم فى سمائه. وكان لعظم شأن هذا الزواج ومراسم الاحتفال به، أنْ تحاكت به منديس وما جاورها لأجيال طوال.

***

خنوم

أينْ أنتَ؟!!

قلبى يتوق شوقاً إلى رؤيتك، فهل من لقاء بعد طول انتظار؟!!

***

مازلت أذكر صورة أبى.. مازالت واضحة فى مخيلتى.. لم تتغير كأنها بالأمس القريب. كان طويلاً غير بدين، قصير الشعر فاحمه، وذا نفس عالية وحس مرهف لم أر لهما مثيلاً.

أحببته وأحبنى بشدة؛ إذ كنت وحيده. وكنت أكُثِّر من الجلوس إلى جواره وهو عاكف على عمله يصنع النعال فى حنو وحب. وكانت مهنته هذه تدر علينا دخلاً ليس بالقليل. تعلمت منه الصبر والرفق، كان بحق معلمى ومرشدى الأول.

***

كان أبى يحلم بأن أصبح من عظماء البلاد؛ فزج بى فى المعبد منذ نعومة أظافرى حتى أتعلم وأصبح ذا شأن عظيم، فقد كان يرى العلم

أساس كل نهضة أو ارتقاء... لم يكن يؤخر لى رغبة.. رحمه الإله وطَّيب ثراه .

***

كان التعلم فى بدايته مرهقاً لكنى قاومت وتسلحت بالصبر الذى لقنَّنى إياه أبى وأخذت أتذكر أقواله لى عن العلم ومآثره وعن المستقبل الزاهر الذى ينتظرنى إذا واصلت السير فيه، فكانت بمثابة الحافز لى على المواصلة. وسرت على الطريق الذى أراده لى أبى، لم أتوان لحظة، ولم أخلف ظنه فيما أراده لى ذات يوم.

***

تعلمت الحساب والفلك والهندسة وعاقرت لفائف الطب البردية طويلاً أقطف من ثمارها، غير أن هذه العلوم لم تستهونى بقدر ما اجتذبنى سلك الكهنوت وعلوم اللاهوت.

بدأ وعيى الصغير ينفتح على أشياء كثيرة. ولنبوءة حدست إياها من رصدى للأحداث ومشاهداتى البريئة، لم أرغب فى الالتحاق بجيش مولاى. كما كان يطمح كثير من زملائى فى المعبد بعد إتمام دراستهم به، ولم أقنع بالتدرج فى مناصبه حتى أصل بعد طول عناء وعطف من جلالته إلى أقصى ما قد يصل إليه إنسان، وفى نهاية العمر بعد أن يكون قد أفنى حياته فى خدمة مولاه، حاكم إقليم!!!

ليس هذا كل طموحى.

***

ازدادت الرغبة داخلى فى أن أصبح كاهنًا، صارحت سيدى كبير كهنة منديس، الذى لولاه ما عتبَّت بوابة المعبد، بذلك، فسعد وشملنى

بعطفه ورعايته وحمَّلنى فى عنقى دينًا آخر فوق ديونى الكثيرة التى أدين بها وتعجز عن ردها الجبال الشاهقات.

***

اتجهت إلى الدين بكليتى. وسيدى كبير الكهنة سعيد بى، مسرور من تفوقى وحماسى للدين، فقربنى منه على صغر سنى حتى صرت ساعده الأيمن وجعلنى أحضر مجلس الكهَّان الأعظم؛ مما أوغر صدر الكهَّان علىَّ. وتوسم فىَّ النبوغ وتنبأ لى بمستقبل عظيم.

***

هبت الشمس تقطع رحلتها الأبدية، مرسِّلة أول أشعتها إلى مركبنا الجميلة.

***

أصبح الدين هو المسيطر على البلاد.. عن طريقه تستطيع أنْ تفعل ما تريد وقتما تريد.. وأنْ تصل إلى ما تريد أيًا كان ثمنه أو موقعه أو قدره.. مر.. تطع.. لذا لم ألتحق بالجيش فقد فات زمنه.. وأصبحت السلطة فى يد الكاهن الأكبر فى طيبة[1].. بينما صاحب السلطة الحقيقى فى تانيس[2] فى الشمال لا يحكم من البلاد سوى أقل القليل.. الشرق من البلاد وربما الشمال.. أما الجنوب فقد وقع فى قبضة كهنة آمون منذ وقت بعيد.. تقربت إلى صاحب السلطة فى تانيس. لكن للأسف ليس بيده شىء.. يا للأسف!! وإن كان يبدو فى الصورة، بعض الوقت، لكن للأسف فى صورة باهتة.. فقدت "كيمت" كل أملاكها خارج البلاد.. وتقلصت حدودها.. وانتشر فيها الانقسام..

١- طيبة سيدة العالم القديم، مدينة الأقصر حالياً.

٢- تانيس هى صان الحجر، مركز الحسينية، محافظة الشرقية.

وعمَّ ربوعها الفقر والجوع وأصبحنا فى أزمة طاحنة وعلى شفا الهاوية وأصبحت البلاد بين لحظة وأخرى تنتظر النهاية وأصبح الأمل معلقاً على خنوم العظيم.

***

خنوم

مالى سواك. فاشفق وارحم وامنح وامنع.

***

بدخولى سلك الكهنوت أصبحت من ذوى الرؤوس الحليقة على صغر سنى وارتديت رداءً من جلد الفهد لأصبح كاهناً يقوم بقراءة طقسة فتح الفم حتى يعيد للموتى الحياة ويعيدهم إلى الحياة، أصبحت كالإله سواءً بسواء، لى القدرة على إعادة الحياة للموتى وإعادة الموتى للحياة كل هذا بفضل الدين.. فالشكر كل الشكر للدين. أقول كما علَّمنى سيدى كبير الكهنة: "قم لترى عيناك ولتسمع أذناك ولتشم أنفك، ولتتحرك أعضاؤك، لتدافع عن نفسك أمام أعدائك".

***

منديس القمر ليلة التمام.

يا لك من مدينة جميلة، دفنت فيها قلبى، ولم يزل يخفق بحبك ولا يريد البرء منه أبداً.

يا موطن خنوم أبى الآلهة أجمعين.

قال عنك: "أحب بقاع الأرض إلى قلبى". وقال عنى: "وأنت يا حور أحب أهلها إلىَّ..". يهيم بحبك دائماً.. يترنم بجمالك.. يشدو برقتك وعذوبة جوك الفاتن ونسماتك العطرة.. ومنظر نهرك الساحر.. يترك بقاع

الأرض كلها ولا يحلو له المقام إلا فوق أرضك وتحت سمائك وبين جنباتك.

ورحل!!

قد رحل!!

رحل منذ زمن.. وترك الشمال كله ورحل!! وخلف وراءه القلب فى شوق وحيرة وألم.

إلى أينْ؟!

لا أدرى!!

وهأنذا ذاهب إلى الجنوب عسى أنْ أجد ما يدلنى عليه.. أى شىء.. فالقلب مشوق إلى رؤيته.. وفى حنان دائم إلى لمساته الحانية ونفحاته المباركة وهباته السخية.. نفسى فقيرة إلى كل ذلك وأكثر.. فمأساتى كبرى ولا تُقدر.

***

يخفق قلبى باسمه. كل خلجة داخلى تهفو باسمه وترددده صباح مساء. أناجيه بكل جوارحى.. بكل ما فى كيانى.. ومنذ فترة اختفى، فأينْ هو؟؟

أريد أنْ أعرف أينْ هو؟؟

أمرك عجيب حقاً!!

***

خرجت من حجرتى إلى سطح المركب. تفيض نفسى سروراً وبشراً، ألماً وحرقة، لا أدرى!! المركب آخذة فى الإبحار. رحب بى الملاح عنخ لدى ظهورى.

جلست على حافتها. أرقب النهر روحى القلقة الهائمة، صدرى المتنفس بالعشق واللوعة. الملاح يمارس عمله بهمّة ونشاط.. تتعمق المركب وسط النهر. تتقدم فى اتجاه الجنوب.

***

انطلق الصبح فى قلبى متدفقاً.

يا أيتها النفس القلقة المضطربة، لا تضطربى.. لا تقلقى، واهدئى؛ فأنت الآن، فى حضرة صاحب القداسة الأعظم.

***

لا تلبث الشمس تظهر حتى تزول.

***

كانت رغبات الاشتهاء فى عيون حريم الإله بالمعبد لا تخفى علىَّ. وكانت تثير داخلى شيئاً من الزهو والخيلاء. أصبحت الرجل الثانى بعد سيدى كبير الكهنة، بعد أن تخلصت من كل منافسىَّ.

رحن يرقبننى بشدة فى شوق ورغبة. كل منهن تتمنى أن تظفر بى. إننى أعلم أنهن جميعاً يعلمن أننى القادم وسوف أصبح فى الأيام القادمة كبير الكهنة وسيد منديس وسيد قرارى، ولا ينازعنى أحد فى أى شىء. يردن أنْ أحتفظ بهن فى المعبد وألا أطردهن واستبدلهن بأخريات أكثر جمالاً وأنوثة ورقة وآمر لهن بصرف أجورهن ومتاعهن بانتظام. رحت أتطلع لهذا اليوم حتى أستطيع أنْ أدخل حلبة المنافسة الكبرى على العرش الكبير: عرش "كيمت تا مرى"، وما أظنه ببعيد.

عرش منديس يتراءى تحت قدمى. حاكم الإقليم أمامى لا يساوى شيئاً هذه حقيقة لا شك فيها. إننى أحلم بما هو أعظم.. أحلم بالملك والجاه

والثراء. أحلم بإنقاذ البلاد من الحرب الطاحنة التى تكاد تقتلها.. ومن المصير الذى ينتظر البلاد.. أحلم بتوحيد البلاد تحت زعامتى.. وإنهاء الصراعات الداخلية.. والفرصة متاحة.. أحلم بعرشك يا "كيمت" الجميلة عرشك كله ولن أرضى عنه بديلاً. اتبعت ومازلت أتبع كل ما يمكن أنْ يوصلنى إلى ما أصبو إليه. وهأنذا أعمل وأعدُّ نفسى وأنتظر جنى الثمار وحصاد السنين ونتاج غرس اليدين ولذة الحلم وروعة الأمل.

***

المركب تتحرك فى خفة ودعة، تكاد تعدو، كأن بينها وبين النهر غراماً عميقاً شاهداً على حب لا يندثر.

استلقيت على سطحها، أرقب الأفق فى محاولة لخرق حجبه الكثيفة. تتقدم صاعدة فى اتجاه الجنوب، فى انسيابية غير معهودة، فى مسيرة بارعة، يا لها من مركب محبِّة، لا تكاد تقلق ما أو منْ تحمل. يحملها النهر سعيداً مسروراً.

***

تعمق مسيرها نحو الجنوب. يوم يبدو لطيفاً. أتفاءل خيراً.. بعد طول قلق وانتظار.. أيتها المركب العظيمة، من فضلكِ، عجلِّى. ليس لدى وقت طويل.

٢

انتصف النهار ومازالت المركب تسرع جاهدة فى الوصول، بأقصى ما تستطيع لم يبق إلا أقل القليل يا حور فلا تعجل.

قلبى يخفق..

لا تجعله يخفق..

لا أستطيع..

قلبى يلهج بالثناء للإلـه العظـيم فـى سمائه، وأتمنـى أن يـوفقنى فـى رحلتى ويهـدينى إلـى بغيتـى. خفقـات قلبـى تـزداد اضـطراباً، كلمـا زاد الاقتراب.

***

خرجت رخت من حجرتها إلى سطح المركب بهرنى ظهورهـا.. كـل هـذا نوم يا رخت انتظرتك منذ الصباح البـاكر. بـل منـذ ملايـين السـنين يـا حبيبتى. لماذا تأخرت علىَّ كل هذا؟!

آيـة فـى الجمـال، ملكـة غيـر متوجـة، شـعرك الأسـود الفـاحم الطويـل النـاعم، يثيرنـى، ينسـدل خلـف ظهـرك الـبض، فارعـة الطـول، لونـك الخمرى يقتلنى، عيناك السوداوان سـواد الليـل تحضـنانني مـن خـوفى وألمى، قوامك ممشوق وقدك مثير، تتفوقين علـى حتحـور فـى جمالهـا الإلهى، أنثـى ريانـة تفـوحين بالحـب والرغبـة وأنـى لمفجرهمـا داخلـك مهما طال الزمن، لنظراتك فعـل أقـوى مـن السـحر، تطـل مـن عينيـك رغبة مكبوتة منذ ألف عام، فشل الكثيرون فـى إروائهـا، رواؤك عنـدى، بـين صـدرى، وسـط نبضـى، فـى قلبـى، فـى عنقـى، فـى نظـرة عينـىَّ المسبلتين، عبر آهاتى الملِّهبة. اقتربت منى وجلست إلى جوارى. قالـت وهى تعبث بخصلات شعرها المنسدل:

- حور.. كيف أنت؟

- بخير.

- نمت جيداً الليلة الماضية؟

- حمداً للإله. أين رخ؟

- نائم.

- وسيا الكئيب؟

- يرتل أوراقه منذ الصباح، أقلق مرقدى بصوته المزعج.

صمتت.

وعيناها تلتهمانى سألتنى بخبث:

- لماذا تكرهه؟

أتعتقدين أننى أغار منه؟! خدعك غرورك. تعتقدين إنك دائماً أول الحقيقة وآخرها. أول الحياة وأملها. حلم المهد. وصبابة الوجد. الأولى وقبل كل شىء!!

- ولماذا أحبه؟

صمتت.

يا لك من أنثى شهية. عجز البيان عن وصفك أيتها الحسناء. ما أحلى قرارات القدر، إذا جمعنا، أنا وأنت، فى فراش واحد. أقبلى. أقبلى يا رخت ولا تخافى. فإنى فيض من الحب والحنان.

سألت:

- حور فيم أنت سارح؟

فيك أنت. أهناك شىء غيرك بهرنى منذ البداية. من أول نظرة.

- لا شىء.

حكايتنا غريبة يا رخت، بعد ملايين السنين من الفراق، يجمعنا الحب بين أحضانه؟! لا شىء يقوى على الوقوف أمام جمالك. الكل يتهاوى. يسبح بحمدك. لا شك سوف أملكك وأعبث بك كيفما أشاء. ملايين

السنين تتجمع فى لحظة واحدة. القدر يحكم حلقاته حولنا. ويدفعنا إلى التوحد. أتوق شوقاً إلى رؤيتك عارية من كل شىء عدا حبى والطرب بجسدك الشهى.

سألتنى بشفتيها الناريتين:

- حور.. أريد أن أعرفك أكثر؟

سوف تعرفيننى. لكن ليس هنا. الفراش أفضل مكان للتعارف. أليس كذلك؟ بلى يا حور. أعلم هذا.. لا تزعجينى كثيراً بتعليقاتك.. دعينى ونفسى. أنا نفسك. ليس لى من نفس.. أنا.. أنا.. بل أنتَ لا شىء.

بدأت فى تعريف رخت بنفسى استعداداً للملاقاة الكبرى. استعدت رخت للاستماع بابتسامة ملأت ثغرها. أردت فى هذه اللحظة تقبيلها وإنْ أمكن مضاجعتها. لولا خوفى من التهور. وسبق الأوان وإفساد الإتيان..

قلت:

تعلمين اسمى، حور من منديس، أتيت إلى معبد بتاح فى منف، كما تعلمين أيضاً، لأقابل الحكيم. نصح بذلك سيدى كبير كهنة منديس وسبب التحاقى بسلك الكهنوت أردت أن أرى خنوم. أن أعرفه أكثر قلبى يتوق شوقاً إلى رؤيته. نظرت إليها فوجدتها تشرق أكثر ابتساماً.

***

أذكر ذات مرة، ربما سقط المكان من الذاكرة، لا. لا. إننى اذكر.. أننى كنت واقفاً إلى جوار قصره، وبمجرد خروجه منه. مسح شعرى بحركة حانية من يده وقبَّلنى وتهلل وجهه نتيجة لما فعل، وأعطانى تفاحة (هنا ازداد انتباه رخت)، مازالت معى إلى الآن، لم تتحلل.. لم تتغير.. لم يحدث لها شىء على الإطلاق.

***

إننى فخور بخنوم، ذلك الذى يحبه الناس جميعاً، ويحب الناس أيضاً، قلبه كبير يسع الجميع، عطوف، لا تعلق به ذرة من كبر أو غل أو حقد، كنت أراه ابتهج لرؤيته. يسير وراءه خدامه وأتباعه، لا يحتقر أحداً بسبب عظم قدره ومكانته، إنه ذلك القلب الكبير الذى جعلنا نحيا جميعاً فى هدوء وسلام. بعيداً عن كل المشكلات تحت عطفه وحنانه، لكنه غاب منذ زمن، ولم يعد يراه أحد. أينْ هو؟!!!

***

بدا التأثر واضحاً على وجه رخت. قالت:

- عظيم.. أكمل يا حور.

لا شىء عظيم سوى جسدك المغرى المثير. صدقينى؟ أصدقك. لا داعٍ للإزعاج قلت لك. لا تغضب.

***

أذكر أننى عندما سألت أبى عنه، همس فى حسرة يغلفها التحوط:

- آه.. آه.. كانت أياماً، فى وجوده انتفى من الأرض الجوع وعم ربوعها السلام. فعقبت فى تأثر:

- لكننى أدركه.. رأيته ذات مرة.

تمتم وهو لا يعى ما أقول:

- هو سر تاهت فيه العقول والقلوب.

من ضيقى صحت قائلاً:

- لكننى أدركته.

فأطرق قائلاً:

- للأسف لم يدركه أحد.

أرت أن أساله عن مكانه وأينْ أختفى. فعلم ما يمور بداخلى، فأردف:

- عبثاً ما تحاول يا بنى لن تجده.. لن تجده أبداً.. فقد عجز الكثيرون..

صمت واستدرك:

- سلم الجميع بأنه حلم جميل يطوف بخيال النائم دون المستيقظ.

فقلت منفعلاً:

- بل سأجده ذات يوم.

وهمس:

- تاهت فيه العقول ولم يدركه أحد.. تاهت فيه القلوب ولم يدركه أحد.

وأخذ يردِّد قوله وهو يغادر الحجرة. وحاولت معه مرة أخرى حتى أثقلت عليه فصمت ولم يجب.

***

أينْ هو؟؟!!

فى تلك الليلة، بكيت بكاء حاراً ولم أنم فيها لحظة واحدة وبدت تلك الليلة أسوأ ليلة فى حياتى، تذكرت التفاحة، فأخذتها فى حضنى ربما تعين على النوم. هيهات!! إننى أتعجب!!

لماذا؟

لأن جارنا باورديس يحدثنى كثيراً عنه وعن خبراته معه وأنه يراه فى المنام ويتحدث إليه كثيراً وأنه إذا أراده لا يأتى!! وإذا أهمله يأتى!!

لماذا لا يأتينى فى المنام؟؟!!

ألا يعطف علىَّ ويأتى، أريد أن أراه، بعد أن كبرت وازداد الرأس علماً،

والقلب له حباً، أليس حبه هذا هو الذى دفعنى إلى التعلم وإلـى المزيـد من التعلم والانخراط فى سلك الكهنوت؟ ألا يأتى إلاّ عندما لا نريده؟؟! إننى فى أمس الحاجة إليه أفلا يأتى..؟؟!

أمره محير حقاً!!

***

قالت رخت:

- قصة جميلة

بل أنت الجميلة. الطريق ممهد إليك. تختفى منه العوائق. وينبسط الأفق إلى ما لا نهاية. ثقتى فيك كبيرة وحلمى بك ليس له حدود. وجودك يسِّهل الصعاب ويرحمنى من ضجر هذه الرحلة القاتلة مع سيا الممل. ويحيل الوجود إلى مذاق أحلى من الشهد المصفى.

قلت:

- ماذا عن حكايتك مع خنوم؟

- ستعرف فى حينه.

- متى؟

- لا تعجل.

قالت:

- كنت أراه ابتهج لرؤيته وأسعد أشد السعادة.

هدفى وهدفك واحد. أيتها السماء الكبيرة التى تظلنى ارتكزى على أعمدتك الأربعة واهدئى. لا شىء يفصلنى عن ملكيتى. قلت هائماً:

- قلبى معلق به وروحى هائمة به. لا انفصام بيننا.

"ذهب إلى غير رجعة"!! كيف؟؟!! لا داع للمهاترات وسط الحقائق. هكذا

سوف يضيع طريقى إلى العرش إلى الأبد. سوف تنمحى معالمه. وأفقد الرؤية. وأضل السبيل. وأظل فى متاهة أبدية. وتلفنى ظلمة قهرية. الرحمة فقلبى يكاد ينفجر وعقلى لا يتحمل.

- لماذا أنت سارح؟ فيم تفكر؟

- فيك.

تظاهرت بالخجل. لا مكان ولا وقت له بيننا. صح يا رخت؟ طبعاً صح. أنتِ ثانية؟!

٣

ظهر سيا الثقيل من بعيد. تشاءمت حينما رأيته أول مرة. ومازال نفس الشعور يلازمنى. مالت الشمس إلى المغيب. نامت الريح. قال عنخ: "لن نستطيع الإبحار الليلة، حتى تعود الريح". إنه نحس. لم يصدقنى أحد! صدقتك. أنتِ ثانية؟! أنا ثانية وثالثة وإلى الأبد.

لا مفر. أصابنا جميعاً الضجر. عنخ عيناه على الهواء لا تهدأن.

***

فى المساء، اقتربت من رخت، قرب مقدمة المركب. وهى واقفة تنظر إلى النهر بعمق فقلت لها: "متى أسمع حكايتك؟". ابتسمت وقالت: "دائماً أنت متعجل يا حور. أصبر". قلت أستحثها إلى رغبتى: "أريدك فى أقرب فرصة". ابتسمت. ولم تنطق. هبت الرياح كريمة. عبرنا بمدينة خربة علامة على عهد غابر. أشار إليها عنخ: "مدينة المارق.. لم يسكنها أحد من بعده.. اعتبروها دنسة.. ولم تطأها قدم من بعده..". رد سيا السمج: "لم يكن مارقاً.. بل كان مفكراً ومصلحاً عظيماً". صحت فيه: "لا بل كان زنديقاً كبيراً". أردت أن أصطدم به بأى شكل. لم

يعطنى الفرصة. تضايقت كثيراً من عدم نجاحى فى تحقيق هدفى. هدأت رخت من روعى.

***

بعد أيام من الإبحار المتواصل، كانت فيها الرياح فى صالحنا، وصلنا أخميم* بناءً على نصيحة عنخ، بعد رحلة إبحار شاقة للغاية.

***

الآن ترسو المركب، أخرج تلينى رخت فرخ، ثم عنخ، وأخيراً سيا الكئيب.

الطريق إلى معبد مين طويل، لكنه مين رب الخصوبة لا يلتقى رجل بامرأة، أو أى ذكر بأنثى إلا وهو ثالثهما، أو أكثر من ذلك إلا وهو معهم.

آتيناك يا مين يا رب الخصوبة.. يا رب الرياح.. يا رب المطر.. يا رب السيول.. يا رب القوافل فى الصحراء الشرقية.. يا منْ تسكن فى عليائك، لنجد عندك شيئاً. أى شىء.

احتضنت رخت ابنها رخ بقوة قرب بوابة المعبد..

أحقاً أستطيع أن أكون سيداً للبلاد؟ هل يتحقق الحلم القديم؟ بعد طول إعداد وعناء وتعلم وتعب يبدو أننى سأكون سيداً للعالمين حقاً.. كما وعدنى خنوم.. ألم يعطنى تفاحة؟ تعد بمثابة مبايعة منه لى بالعرش وبكل شىء؟ بلى. وخنوم سيد العالمين. لكن يبدو أن الحلم ليس سهلاً.. فلنجرب.. ولتكن مشيئة الإله.. أبى مين أتيت إليك فلا تردنى، أجل لا تردنى مكسور الخاطر إننى أحبك كما أحب خنوم. حور حبيب صديقك خنوم.

---

* أخميم مدينة فى صعيد مصر بمحافظة سوهاج.

استأذنت فى الدخول إلى حضرة كبير الكهنة. فسُمح لى بالدخول. أرادت رخت الدخول فلم يُسمح لها. وعقب الحارس: "ممنوع دخول النساء إلى حضرة الكبير". تعجبت وردت بسرعة: "إذًا فليدخل ابنى". فتمتم الحارس فى سخرية: "أيضاً لا يُسمح بدخول الصغار إليه". صاحت: "إنه ليس صغيراً". فعقب متهكماً: "لحيته لم تنبت بعد". صمتت والتزمت الصمت. خرجت من لقاء كبير الكهنة العقيم الذى لم يزدنى شيئاً ولم أنبس. أتكلم بماذا وهو لم يقل شيئاً. أنه لا يعلم شيئاً. الرجل كان ثملاً ولا يريد أن يفيق. دعانى إلى الشراب والنساء فلم ألب دعوته. واعتذرت بأن هناك منْ ينتظرنى بالخارج.

حمداً للإله لم يدخل سيا الثقيل معى. واكتفى بالجلوس مع رخت ورخ وعنخ فى فناء المعبد. الآن أستطيع أن أعبث بأعصابها كما يحلو لى. أعلم أنها لنْ تهدأ حتى تعرف. أعلم أنها جُنت وأنا بالداخل وهى بالخارج تفصل بينها وبين الأسرار الأسوار. تخاف الغدر. وهى الغدر نفسه. تريد أنْ تعرف ما دار بينى وبين الكبير. وأنا خجلان من الحقيقة ولو قلتها سوف تقول أننى أخدعها أو أهزأ بها. راوغتها: "قال إنه لم يعد له بقاء فى تلك المنطقة". تعجبت. كيف لا يكون له وجود!!

كانت رحلة الإبحار شاقة، ولم نستطع الإبحار ثانية، وحل الظلام، قررنا قضاء تلك الليلة فى أخميم للراحة، وتزويد المركب بما تحتاج. أخذ عنخ رخ فى يده، وذهبا لجلب ما يلزم المركب. وخرج سيا المضجر فى جولة تفقدية للمنطقة كما ادعى.

رخت

١

كان جالساً على الشاطئ يبدو وكأنه يحصى النجوم عدداً. مال برأسه تجاه المركب بينما أنا نازلة منها. اقتربت منه. جلست إلى جواره. لم يمل إلىَّ. بدأت أتحدث: "بالطبع لا تعرف حكايتى، وبحثى الحار عن خنوم وسر قدومى إلى هنا.. يبدو أنك دخلت فى أعماقى ولأحكى لك حكايتى". لم يلتفت إلىَّ.

٢

كانت لى زوجة أب، عنيفة، قاسية. كانت نجواى وسلواى أنْ أذهب إلى النهر، كلما أردت الهروب من ذلك الجو الخانق بالنسبة لى.

النهر هو عين الحياة فى بلادنا.

إننى من الدلتا، ولا أخفى عليك سراً، أننى أعشق الدلتا وأموت حباً فى ترابها. كانت الشمس مشرقة. والنهار مازال فى أوله. فى ذلك اليوم لم آخذ معى خادمتى، اقتربت من النهر. تجردت من ملابسى كالعادة. مع كل قطرة دغدغة فى جسدى تسرى بلحن مرهف.

كانت ترانيم خنوم هى ما أردد، وأنا استحم، تُهيِّج مشاعرى، وأشعر باللذة والارتواء، وكأنى فى لقاء. الماء ملمسه مثير. يثير فىَّ شيئاً ما لا أعلمه. أحبه. أعشقه. كنت مكتملة الأعضاء... و... واستوى عودى بشىء ملفت للنظر آثار غيرة بنات سنى.

شىء غريب يحدث فى السماء. أشياء. برق. رعد. نور هادىء. شىء يحدث ولا يحدث. ظهر رجل مهيب الطلعة. جميل الوجه لم أر أجمل منه وجهاً. أشار إلى أن أخرج. لا أخفى عليك كنت مذعورة. عندما خرجت وأمرنى بالا أرتدى ملابسى. خفت. ماذا تريد؟!

مال بى إلى شجرة. أخذ يهدهدنى كأنى طفلة صغيرة. وابتسمت. أشرقت ابتسامتى فى الأفق. "أنا خنوم". غبت عن الوعى.

استيقظت على عبيره. وابتسمت فى حضرته. اقترب منى على الفور. والشوق يقتله. تحركت رغبته نحوى. شىء ما يطوف حولى. مسح بيده شعرى. ضمنى. نسيت كل شىء.

ابتسمت ثانية. ابتسم. (التفت إلى حور). مال علىَّ يقبِّلنى. ملت. ملت. خدر غريب يسرى فى جسدى، لم أذق طعمه بهذه الحلاوة من قبل. كان لذيذاً للغاية. (زاد انتباه حور) لم أنزعج.

تسرب حبه المترع بالخصوبة والحيوية إلى جسدى الجائع. غمرنى عبيره. صنع معى كل ما يشتهيه. وفعلت كل ما فى وسعى لإسعاده.

"ما أعظم قوتك. مشاهدة جسدك شىء مثير، أنداؤك تنتشر فى أعضائى".

قلت. كرر معى كل ما كان يرغب فيه ويحلم به. قال وهو يتركنى:

"ستلدين منى ابنًا يكون سيداً للعالمين، وسوف يطلق على هذا الابن الذى وضعته فى جسدك اسم "رخ"، سوف يتولى الملك فى جميع أرجاء البلاد. اقتدارى له، وسلطتى له، وقوتى له، وتاجى العظيم ملك له، يحكم القطرين ويقود الأحياء أجمعين.. تتحد الأرضان من أجله، وأكفل له الحماية السحرية".*

* مقتطف من قصة الولادة الإلهية للملكة حاتشبسوت بالدير البحرى بالأقصر، حيث معبدها الشهير.

أول الأمر فرحت. ثم قلقت من أهلى واكتشاف أمرى. ارتديت ملابسى نشوانة. وكل ما أرتديه أخلعه لأتذكره. كل قطعة. كل لمسة. كل ضمة. كل قبلة. لها ذكرى أثيرة عندى. تذكرنى به. يوم ميمون. ونهار رائع. (وفى همس) ومازلت أحتفظ بها.

لم أشعر بطعم اللذة التى شعرت بها معه، على كثرة الرجال الذين بهم التقيت!! لا تنظر إلىَّ هكذا، لم أكن غانية الحى. (أسدلت جفونى) كانت أياماً أحلى من العسل المصفى لا يوما واحداً فحسب. هكذا قد تأتى الإنسان فى يوم واحد، فى لحظة واحدة، فى ضربة واحدة، خبرة تعجز عن حصدها الأعوام.

كانت أياماً وليس يوماً واحداً.

- أهو ذلك الصبى الذى معك؟

- هو.

٣

حاول الملاينة والجذب. بعد أن دغدغ أعصابه الكلام فتبسط:

- أنت جميلة فعلاً، لم أُشد إلى امرأة من قبل، لاحتقارى لهن، كما أنا مشدود إليك الآن، وجدت فيك شيئاً مختلفاً.. أنتِ ككل مختلفة.. تصيبين المرء بالدهشة باللوعة بالألم بالرغبة بالفرحة بالأمل..

- نفس الشعور يراودنى (وأنا أمسح على شعره) أريد الحب، وأنت صانعه وبائعه، أريدك ككل.. أريدك بشدة. معاشرتك حلمى. الزمن معنا.

- ظمؤك شديد.

- حساس. تقدر مشاعر وأحاسيس امرأة مثلى.
- تفضلين فى الطبيعة أم فى الأماكن المغلقة؟

مبتهجة:

- بين أحضان الطبيعة أفضل كثيراً.
- الطبيعة الآن صامتة، لا تشجع على شىء، لا يوجد نهر مشرق، أو حديقة غنَّاء، أو وادى عميق رطب. مرة أخرى يا رخت أُعدك أنها سوف تكون ملحمة لن تنسيها إلى الأبد . تُكتب على صفحات جسدك مرقشة بأحرف من المتعة والعذاب. المرات القادمة كثيرة لا تُحصى.

٤

سرنا إلى المركب سوياً: رخت وحور. يدى فى يده. صعدت أولاً وهو ثانياً. إلى حجرته دخلنا. كانت الإضاءة خافتة. جلس على مقعد، وأنا على حافته. أخذت أعبث بخصلات شعره. استرخى تماماً.

- حور، تهيأ لنا الحال، فتحرر من كل قيودك. وتبسط.
- لتكن إرادتك.

أخذنا فى خلع ملابسنا. وإلى الفراش أوينا. وقبل أن يعبث بجسدى.

- عزيزى حور، أريد أنْ أعرف شيئاً، أتستطيع قوله؟
- إنْ كان فى استطاعتى.
- ماذا؟
- ماذا كان قول كبير الكهنة لك فى معبد مين؟
- سر وليس بسر.
- لغز؟

- ربما.
- ماذا؟
- دُفن خنوم فى وادى الملوك* لانتهاء عصره.
- أهذا كل ما قاله أيها الثعلب اللئيم؟
- كل ما قاله؟!

فلأغير الحديث حتى لا يشك فى دعوتى.

- أحبك يا حـــور.
- نفس الشعور.
- لماذا تحبنى.
- المرأة التى اختارها خنوم لتكون حبيبة له وأمًا لابنـه الوحيـد، أليس هذا كفيلاً بحبها؟

لبق حقاً.

- بلى يا عزيزى.
- لماذا تخيرتنى عشيقاً؟
- ليس عشيقاً، بل حبيباً.
- لا فرق.
- فرق، وفرق كبير.
- لماذا كان الاختيار؟
- أنت الباحث عن خنوم، أعطاك تفاحة، بمثابة مبايعة منه لك.
- ألهذا إذًا؟

* وادى الملوك هو مكان غرب مدينـة الأقصـر خُصـص لـدفن ملـوك الدولـة الحديثـة، أشهر مقابره، مقبرة الملك الصغير توت عنخ آمون، أشهر شخصية على وجه الأرض.

- ليس هذا كل شىء.

- ما كل شىء إذًا؟

- أشياء عدة: رجل قوى، وسيم، ذكى، طموح، تسعى للمجد والشهرة وهما قاتلاى قريباً.. (ابتسم) وتجسد نفس الصورة التى ظهر عليها خنوم معى فى لقائه القديم.

- القتل. ما سبب ذكره؟!

لم يكمل العبارة حتى قفز من الفراش مرتمياً على الأرض. هرعت لإنقاذه.

- ماذا حدث؟

- أشعر بتعب.

- أينْ؟

- لا أعرف، فى صدرى أم فى بطنى.

أخذت ردائى. وخرجت أحضر مساحيقى الطبية والسحرية. دلكت له صدره وبطنه فى شىء من القوة. ابتسم، شكر لى صنيعى. استند إلىَّ حتى بلغ الفراش. نام وغطيته. حملت حقيبتى إلى مكانها السرى. أنعى حظى العثر.

٥

لاحت الشمس فى الأفق الشرقى. الرياح نائمة. المركب متوقفة. جلست أنظر إلى حور بعين نهمة. ماذا يحدث لك يا رخت؟ تندبين حظك العثر، أم تمنين نفسك بالأمانى، وبالفوز به ثانية؟ أم تحلمين؟؟ قديماً فقدت خنوم. والآن تبحثين عنه. وبالأمس فقط تفقدين حور. يالحظ العثر!! أعذرك يا رخت. امرأة نارية ثائرة أنتِ.

رخ

١

سألنى حـــور:

- ما حكايتك؟

- تريد أن تعرف؟

- نعم.

- لمَّ؟

- زيادة فى العلم، فإننى أحب العلم وأجِّل أهله.

- فلتكن المشيئة.

٢

السيدة التى تجلس أمامك أمى، سيدة مباركة (أطرقت أمى فى حياء).

- أعلم هذا يا رخ.

كانت تستحم ذات يوم بالنهر، كعادتها، وخرج عليها رجل قال إنه خنوم. وحدث بينهما ما حدث. ولما سألت عنه تتأكد. علمت أنه خنوم العظيم حقاً. أبى. ذهبت إلى المعبد، كما أمرتنى أمى، حتى أتعلم الحكمة والتفلسف وكل شىء، حتى أكون معداً لقيادة العالمين كما وعدتنى أمى بذلك (نكست أمى رأسها).

- أكمل يا رخ. قصة مسلية.

ليس لقصتى أحداث طوال. لم أفلح فيما سعت أمى من أجله. إنسان بسيط يحب الحياة ويطمح إلى العيش فيها بسعادة وسلام. أحب خنوم

وأتمنى أن أراه. أبى الذى لم أره قط.

هذه تقريباً قصتى.

ابتسم حـــور قائلاً:

- وفقك الإله لرؤية أبيك العظيم.

٣

الحب في دندرة

عنــخ

١

خنوم وداعاً!!

فجر جديد يشرق. جديـد قـديم. قـديم جديـد. لا جديـد تحـت الشـمس. يوم يبدو حافلاً بالمفاجآت. المطر ليلة أمس كان خفيفاً، انصـرف وحـده على النهر، غسل المركب فأصبحت عروساً.

الفجر والشروق رائعان فى عز المطر. الكل نائم. وأنـت وحـدك يـا عـنخ تلاطم أمواج الحياة بجسارة تُحسد عليها.

***

عنخ!

اسم عجيب حقاً!

ضربات الحياة متتابعة، والقدر يحكـم قبضـته بقـوة. الويـل كـل الويـل لمن يحاول الهروب من السجن الكبير.

أيها النهر.

أنت روحى الهائمة، أحبـك، أحادثـك بكـل مـا فـى خـاطرى، أتعلـم منـك الحكمة، أتعلم منك التهور، بدأت عليك حياتى وعليك تنتهى. من كثرة انشغالى بالعمـل أُنهكـت العاطفـة داخلـى، قسـوة الحيـاة لا تسـمح لـى بالحب.

أيها النهر.

شُغلت بك عما سواك.

كل شىء يعود إليك.

كل شىء سيعود.

***

حينما رأيت رخت، أيقظت الرغبة داخلى، فاجتاحتنى رغبة عارمة فى إمطارها بسيل من القبلات. لا شك فى جمالها وغرورها.

***

بحثت عن الحب فى كل مكان، بعد فوات الأوان، وفى صدور الغانيات، فى أبهاء الحانات، مع القرويات الساذجات، يأتين للبيع والشراء فى سوق منف، استقبلهن، كلى شغف، وهن نازلات لتوهن من المراكب الشراعية الصغيرة، مقدماً خدماتى...

***

السعادة فى عيون الصغار، شىء لم أذقه. القسوة والحزن، رغم تظاهرى بالمرح، يفترشان مكاناً كبيراً من قلبى. تحت وطأة الحاجة، تعددت أعمالى من سقَّاء إلى حمَّال... وأخيراً مراكبى!! كلما كنت أسأل عن أصلى، لا يدلنى أحد.

قادم من عالم مجهول لا أحد يعلمه.

فى أحضان الضياع والتشرد، مولدى ونشأتى. صغير جائع يصارع الحياة فى شجاعة وإقدام، أُجبرت عليهما، لا حيلة.

الليل والنهار قدوم متواصل، لا انفصال، الحياة يوم متصل، لا فرق بين ليله ونهاره، أنشد النجاة، تصفعنى بحار اليأس، يتوهج بى الأمل ويتنهى إلى لا شىء.

التيه فى زوايا النسيان، مؤرق مؤلم، الحياة فى رأسى تيار متلاطم لا تحده شواطئ، تغمره أنواء متواصلة بفيض مورها وتقبلها الحاد، نحو

يقين أبحث عنه، وماضٍ ألومه، وحاضر أكتوى بناره وأحاول الانشغال عنه.

خنوم لا تلمنى!

لم أؤمن بك فى حياتى، تملكنى ثمة شعور بالخوف من المجهول ذات مرة، ما قيمة الاعتقاد!!

أعجب لهؤلاء الذين يبحثون عنك! منْ خنوم هذا؟! كان أعظم الآلهة فى الزمن القديم، الآن لا بد من مسايرة العصر، حتى لا أصبح سجين المحبسين: سجن خنوم، وسجن الذات.

خنوم عفواً!

الشقاء دفعنى لمعاداتك. لست إلهى، قبضتك قاسية، لا حانية، الرحمة ليست صفة من صفاتك.

لماذا صنعت هذا العالم؟!

من أجل ماذا؟ أجبنى؟ تلهو بنا وبمصائرنا، ثم تعاقبنا فى النهاية على صُنع يديك؟!! خلقت العالم وتركته لغيرك يحكمه!!

لا أحفل بك أو بغيرك.. لا شىء يهمنى سوى عملى، سبيل التفوق. دعوتك كثيراً، فلما لم تستجب، أيقنت أنك غير موجود. أورثونى جسداً مشوهاً ونفساً مشوهة.. فكيف الخلاص؟؟؟!

***

- .....

سألنى سيا متعجباً:

- لماذا تكفر به؟! كيف لا تؤمن به؟!

فى منتهى السهولة:

- لم أكفر به.. هو الذى أنكر علىَّ إيمانى..

تعجب ولم يرد.

***

أى إله أنتَ؟ خلقت الجمال وحرمَّته على بعض عبادك؟!

***

عُقد مجلس الحرب، بحضور جلالته. نادى بى القواد قائداً عاماً للجيوش. الحلم الكبير. يا له من حلم يا عنخ! الجنود تتسابق على الفوز برضاى. تهت وسط ضباب مقيت لا يبصر. طُردت يا عنخ من الجندية. وتسلقت مع منْ تسلق فى سبيل الفوز بأى من الغنيمة، ولو أقل القليل!!

أريد ملامسة العالم، أنْ أعرفه بعقلى وقلبى وجسدى. تجربة عظيمة يعقبها الجنون والعظمة. أريد النسيان.

ما أقساك!

ما أعنفك!

***

سألت سيا:

- العقل أم القدر، المنتصر؟

- العقل والقدر من صنعه.

- منْ؟

- هو.

***

أحلِّق فى الخيال، فيشدنى الواقع إليه بنفس القوة!! أترك ورائى تاريخاً مترعاً بالذكريات.

***

كيمت.

اصرخى. آلام المخاض ليست هينة. أنتِ لست ضعيفة. أنتِ قوية.

كيمت.

حزين على حالك.

تقلصت أرضك فى الخارج. وازدادت انقساماً بالداخل. وأبناؤك ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وقاسوا مرارة اليأس والحرمان.

استيقظى من غفوتك. لم يعد وقت. اخرجى، من أزمتك، عملاقة. ثمة شعور بالتفاؤل يتوغل داخلى، لا تقلقى، قادم لا محالة.

٢

اقتربت المركب من دندرة*. نصحت بالنزول إلى معبد حتحور، ربة الحب والجمال، ربما يكون عندها ما يهدى هؤلاء الحائرين. ترسو المركب. فى عجلة، ننزل إلى المعبد توجهنا. وجدناه مغلقاً وعليه حارس. سألنا:

- ماذا تريدون؟
- كبيرة الكاهنات.
- لا يوجد أحد.

* دندرة مدينة فى صعيد مصر بمحافظة قنا.

- لمَّ؟

- ماذا تريدون، علىٍّ أخبركم؟

قال رخ:

- إننا نبحث عن خنوم، ألم تره؟

قهقه الرجل، وكاد يسقط على الأرض. ثم ثاب إلى نفسه:

- إننى أسخر من هؤلاء القوم الذين عن الوهم يبحثون. خنوم منْ! وحتحور منْ! إنها آلهة الزمان القديم، لم يعد لها وجود. إنكم بلهاء حقاً (كاد حور يتشاجر معه. منعته). خنوم! أذكر إننى عندما ذكرته لأبى قال متعجباً: "خنوم!! لم أسمع بهذا الاسم.. تذكرت ربما كان بستانياً يقوم بزراعة حديقة الأمير"... فلا تثيروا ضحكى ثانية. أرجوكم. أتوسل إليكم. لا تذكروه.

لم يكد الحارس يتم حديثه، حتى كاد يسقط على الأرض من الضحك ثانية.

هممنا بالرحيل. قال يودعنا:

- سلام أيها البلهاء.. خنوم.. عجباً، بلهاء، منْ يكون خنوم هذا؟!

واستمر فى ضحكه العنيف.

٣

أشرقت رخت كشمس الصباح على سطح المركب. أول منْ استيقظت مبكراً. سيا يطالع أوراقه، لا يفارق حجرته، يخرج قليلاً إلى سطح المركب. رخ يجلس معى فى الضحى من كل يوم. يتبادل الحديث معى. أحياناً يشاركنا سيا الحديث.

سيا حكيم، طيب، هادىء، صامت، من عينيه تشع الحكمة، فى كلامه الصدق.

ارتاح إليه كثيراً. خففً عنى الكثير. حور لا يحبه. لا يحب أحداً، مغرور متغطرس، لا ود معه، بينى وبينه فراغ كبير.

سألت سيا:

- ألا تسأم؟!

- لولا وجوده معى لما تحملت ضجر هذه الرحلة القاتلة.

متعجباً:

- منْ؟!

- منْ أنكرت وجوده ولم ينكر وجودك.

خنوم ثانية، يا سيا!! شىء انتهيت منه منذ زمن موغل فى القدم. ألا تسأم؟!

٤

فى هذا الصباح، على غير العادة، شعور قوى جمع أهل المركب. الكل خرج إلى سطحها. جلسوا ينظرون إلى النهر. أداموا النظر. تبادلوا أطراف الحديث. يخافون خطراً ما دفعهم للتجمع والوحدة ونسيان الخلافات!

وتجمعوا وسط المركب. اقتربت منهم محاولاً التسرية عنهم. أخذت أقص عليهم حكايات صادفتها فى حياتى الملاحية والعامة.

حكيت لهم عن قصة الثعلب الذى تنكر لى ذات مرة فى صورة قط نافر وأراد الفتك بى لولا أنْ أعاننى عليه حابى العظيم إله النهر.

انبهروا بما سمعوا. حور غائب، شارد، متعال على ما أقول. أخذوا يلحون علىَّ فى سماع المزيد. سيا يستمع متأملاً. رخ مذهول مما يسمع. رخت مبتسمة تنظر إلى حور بين لحظة وأخرى. لا تنظرى إليه! انظرى إلىَّ، ولو مرة واحدة، ألست الحكاء؟! أم هو؟!

يا أيها الحظ العقيم. أنجب ولو مرة واحدة فى العمر شيئاً يفرح القلب الحزين، المتظاهر بالضحك، الملىء بالأنين. أنجب. فقلبى فى شوق لفرحة الأمل ونور اليقين.

نهض حور وانتحى ركناً وحده. يفكر. رخت عيناها عليه لا تهدأ. لا تكثرى من النظر إليه. وانظرى إلىَّ ولو مرة واحدة. واحدة فقط.

كان النهر قديماً أوسع من هذا. كنا نجوب أحياناً منطقة، ليست بالقليلة، منه على الأقدام. قلبى كان يخاف الماء والنهر والماء وعدة أشياء حتى علَّمنى رئيسى الملاَّح العظيم "سجاو مرى" عشق الموت والفناء فى العمل والجسارة بلا حدود. كان رجلاً ممتازاً حقاً. أينْ هو الآن؟ حكى لى كثيرون أنه مات مغتالاً. لا تعجبوا. أرى الدهشة فى أعينكم. قتله اللصوص. وليس أخوه أو زوجته كما أذاع كثير من الناس. حكاية تبدو مؤلمة حقاً. لكنها طريفة .....

أقول لكم حكاية أخرى.

خرج "ون آمون" أسن موظفى معبد آمون فى طيبة إلى "جبيل"* لجلب ما يلزم قارب آمون العظيم من أخشاب.

* جبيل ميناء قديم على الساحل اللبنانى.

فسُرقت نقوده فى أول محطة له. فشكا إلى أميرها. فلم ينصفه. فاستمرت رحلته. قابل بعض أهالى جبيل فسلبهم كيس نقود تعويضاً عما سُرق منه.

غضب أميرها لما حدث. وأمر بطرده. فلم ينفذ الأمر. ودار بينه وبين الأمير حوار انتهى بإرسال سبع قطع من الأخشاب إلى كيمت.

وبعد أن جهَّز الخشب على شاطئ البحر جاءت سفن غريبة للقبض عليه وسجنه فى أرض أمير جبيل. فرفض أميرها أنْ يُقبض على ون آمون فى أرضه. وأرسله بعيداً عن بلاده. فساقت الريح سفينته إلى أرض جديدة. خرج عليه أهلها ليقتلوه. فلجأ إلى ملكتها العادلة التى حمته.

وعاد ون آمون إلى وطنه بعد أن لاقى الأهوال. وأوشك على الموت فاشلاً فى مهمته التى أُرسل من أجلها ودُفن فى أرض وطنه كما تمنى.

حـــور

١

الصباح يشرق عبر ثغرك الباسم، عبر وجهك الفاتن. تتحرق شوقاً للفوز بها، لا تقوى على البعد عنها. لحظة ممتعة، التى تلامس فيها شفتاى شفتيك، من كل قلبى أدعو أنْ تدوم إلى الأبد.

أحبك.

يا زهرة الحب القانية الحمرة، الممزوجة بالعشق فى أعنف صوره.

أحبك.

جسدك مثير، نهداك يتفجران بالحب والنشوة، شعرك ليل دافىء، ساعداك أنصع من ضوء القمر، وأناملك أزهار لوتس ندية وقت الفجرية.

انكشف عنك رادؤك، كشفته عيناى المتلهفتان، سحرنى الجمال، بهرنى الدلال، فخذاك ممتلئتان ما أروعهما بين النساء، لم أر مثلهما من قبل، ساقاك شهيتان.

٢

ضقت بالمركب وحالها وأهلها. ملت على رخت، أقترح فكرة الخروج، أنا وهى فى نزهة خلوية، حتى تصفو لنا الحياة بلا كدر، ونعوض ما فاتنا ونرتاح من سيا الممل، ونتخلص من رخ العبيط، وعنخ الثرثار، النفس تريد دائما الصفاء والحب والحلم..

سُرت بالفكرة. خرجت أسبقها. لم تغب طويلاً. وصلتنى على جناحىً الشوق واللهفة. أشبكت يدها فى يدى، خدر غريب يسرى فى جسدى، ابتسامتها الجميلة أحاطت بنا، أشفقت عليها من السير وسط الطريق المترب..

الصباح ندى، النهر نبيذ رائق العذوبة. نسمة باردة تسللت إلى صدرى، فأيقظت غرائزى وأرهفت حواسى وألهبت جوارحى، وأضفت جواً من السعادة الغامرة على طريقى المفروش بالورود الزاهية إلى قلب رخت وجسدها. ازدادت سعادتى سعادة.

رخت معى. بين يدىً. أفعل بها ما يحلو لى. ما يروق لخيالى الجامح. فريسة منقادة لا تملك من أمرها شيئاً، لا تملك أدنى اعتراض.

رخت أيصل الحلم إلى أرض الحقيقة بهذه السرعة؟! وفى هذا الوقت القصير؟! وكم تستغرق رحلته من وقت؟ وكم تكلف من ثمن؟ وكم تمنح من عطاء وكم تجلب وتبقى من سعادة؟

٣

فى حديقة غنَّاء عامرة، وداخل جوسق من البوص تخللته أفرع شجرة عطرية باسقة، وتسلقته ياسمينة فواحة الشذا، قبَّلتها، فانفتحت شفتاها كتينة تفتح فمها للوهج والألق وماء المطر، ثملت دون شراب.

أشجار الحديقة كتوم.

لنْ تبوح بسرنا لأحد أبداً.

أيها الصباح، ما أجملك، بين كل الصباحات التى مرَّت بها حياتى. أنتَ ملكى إلى الأبد، طعمك فى فمى باقٍ، أيضاً، إلى الأبد، أنتَ شاهد حبنا الفعلى، وأشجار الحديقة، والهواء الذى يغرد حولنا، ويهبنا أفضل ألحانه وأطيب نسماته وأرق لمساته.

الملكة ملكى، أعانقها تحت ناظريك، بين راحتيك، وأنتَ سعيد، أراك مسروراً، بلغت بك الغبطة منتهاها، تحب العشق ولذة الحب، وتحنو على العشاق. كم رأيت، وشاهدت، وسمعت، وحفظت.

رعشة الحب.

ما أحلاها.

امتد ساعداى يعبثان بظهرها الطرى، لا فرق بين ظهرها وصدرها، كلاهما ممتلىء صاخب مثير، يهمهم بأنات أجيد تفسيرها، أغرقنى فى الحب، أذقنى حلاوة العشق ومتعة الحلم.

غمرنى عبير جسدها الشهى، احتوانى بين ممراته ودروبه الطويلة وعوالمه الثرية، جعلنى ساكنه الوحيد، يهبنى كل صباح ومساء أعز ما يملك، يطيِّب به قلبى، وتطرب له روحى.

عبثت بصدرها، نفث لهباً بهياً آثارنى، جعلنى أتأجج من روعة الحلم وقسوة الهوى. يا منْ وضعت الطاقة بين أفخاذ الرجال، والشهوة فى أجساد النساء، أعنى.

- فى النهر أفضل كثيراً.

ذهبنا إليه. تجردنا من ملابسنا. نزلناه فى منطقة غير مأهولة. قالت وهى بين أحضانى:

"حبك يتسرب داخلى نبيذاً فى جوف الظمآن، يقتحمنى كالفيضان الهادر، خضبت قلبى، رغبتى فيك كحل عينى، التصق بى، زدنى من حبك الهائج الدافق، أشعلنى ناراً وثورة، حبك داخلى ريشة فى مهب الريح. لكم أنعم بملاصقتى لك. غنت الأغانى، وعزف الناى، وغردت القيثارة، لأنى معك، بين أحضانك الدافئة. خذ نهدىً، كل ما فيهما يفيض من أجلك. حبى لك يغزو كل جسدى بلا شفقة أو رحمة. كم حلمت أنْ أنزل النهر معك، وأنْ استحم بين يديك، وأنْ أغوص فى الماء بجوارك، تحملنى بيديك، شوقاً من العاشق إلى المعشوق، ومن المعشوق إلى العاشق. شاهد شفتىً، ثدىً، خصرى، مستودع الأسرار، فخذىً، ساقىً، ردفىً.. كلى لك دون سواك. اقطف الرومان من نهدىً، داعب حباته، العق أسنانى بلسانك".

لم أرحمها. أمطرتها بسيل من القبلات وفيض من المعانقات. أحسستها تتلوى بين يدىً، لينة وديعة طرية.

أحطت بكنز الأسرار، بيدىَّ، احتضنته بقوة وشوق ولهفة، المستودع الأبدى للتاريخ، خالق الخير والشر، مدير الوجود، مدبر الفناء والعدم، وسبب الوجود وبلسمه.

الحب يعربد داخلى بلا سيطرة أو سلطة تحدان من حركته الهادرة. وجدت مخدعك مزيناً بكل جميل. وأنتِ أجمل شىء فيه، فخذاك مكشوفتان، مستودع الأسرار، بينهما، يهبط ويعلو بشوق وألم. فدخلت ولم أتردد لحظة واحدة. ولم أرحم نبض آهاتكِ المسترحمة.

٥

- بين التلال القريبة، سيكون شيئاً ممتعاً.

خرجنا من النهر. وارتدينا ملابسنا. ارتداء ثم تجرد ثم ارتداء؟! على أى حال ننتهى؟ سرنا إلى التلال القريبة المحيطة بجانب النهر. سبقنى لهفى وسبقها تلهفها. الحب يجمعنا هذه المرة بلا مؤرق. لمحت مكانا يبدو مريحاً لظهرها، سطح صخرة مستوية بين مرتفعين، توقفت به، لم أدعها تلتقط أنفاسها المتقطعة، ضممتها إلى صدرى، أغرقتها فى نهر قبلاتى الحارقة، انحلت ثيابها، كيف؟! لا أدرى!!

احتضنتها بقوة، والشوق على أشده داخلى، ابتلعنا تيار دافق من العشق والحب فى ثناياه، صرنا واحداً لا اثنين، قلبها يخفق بشدة، لا يحتمل سطوة العشق، جسدها أسفلى نهر فى زمن الفيضان. ألهبت أنفاسى، فى هبوطى وصعودى، صدرها، قلبها يدعونى للمزيد، شوقها إلى مهاراتى لا يُقدر.

دفنت نفسى فيها، أسبح داخلها، ميناء كبيرة، أنا بحارها الأوحد، أركن إلى كل جزء منها بمهارة، أثير شجنه وألمه ولوعته، أحرِّك الكامن من مشاعرها، وأحيى ما مات بفعل الإهمال، وأصلح ما فسد بتراكم الزمن، أجعل جسدها فى حيوية فائقة، ينتفض من سكرته، كسمكة خرجت لتوها من الماء فانهمر عليها المطر.

لا أكلٌ ولا أملٌ.

"حور أنت الارتواء فى صورة رجل".

قلادة على صدرى، نجحت فى كسبها قلباً وجسداً.

عبثت بصدرها، ندت عنه صرخة. لم أعبأ بها، أعلم السر وأخفى، وازددت سيراً فى طريقى، أغرق الأرض وأهيئها للبذر، أغرقها بماء الحياة استعداداً للإنبات والاخضرار والنمو .

فصل حافل بالعطاء والارتواء.

أعزف بمهارة على أوتار جسدها. أصابعى ذات مهارة فائقة فى استخراج الألحان المختلفة من جسدها، عبر ثغرها حبة النبق. أعرف أينْ، ومتى، وكم، وكيف أضغط، وأعرف، أيضاً، كيف أريق لمساتى بحنان وحب وقت التلطيف والمداعبة، وأعرف، كذلك، كيف ومتى تكون الحركة من اليمين إلى اليسار ومن فوق لتحت، والعكس، وأعرف وقت الضم والفتح ووقت الانكماش والتمدد.

الاحتضنان لدى قاسٍ مؤلم تغلفه اللذة والمتعة.

عبثت ببطنها الفائرة، وانكفت على ثغرها أقطره بفيض من الشهد المصفى. عبثت بشعرها بجنونى الصاخب. التقمته بين أصابعى ألعقه. "حور افعل ما بدالك، كلى ملك لك". هى ملك لى. وأنا ملك لها. عبثت بشعرى، خصلاته جميلة ناعمة تثير غرائز النساء، طوقت عنقى،

احتضنتنى. "اضغط أقصى ما تستطيع". التصق جسدى بجسدها، انمحت المسافات، ترتعش من النار الحامية التى اشتعلت بيننا، انتفض جسدها من شدة الاشتعال. ضغطت عليها أقصى ما يكون الضغط، حلقت فى عالم آخر، لا أرض له ولا سماء، عالم متعة فى متعة، عالم من الحب اللذيذ غير المسبوق، ليس لى أو لها جسد، روحان تهيمان فى سماوات العشق وصبابات الوجد.

"حور اقتل الزمن فى مرقده، حتى تحلو لنا الحياة بلا أرق".

٦

أخرجت النار من جبل بارد. تألقت تألقاً غير عادى، لم أعهده مع أخرى، فتحت شهيتى بثرائها الأخاذ، تحررت من كل قيودى، وعبرت شاطئ همومى الخاصة، بلا رحمة، إلى جسدها الشهى، لم أفكر فى شىء ولم أفعله معها، أخلصت لهذا الجسد النارى فأخلص، ركزت فى فعلى. وهبتها كل ما أملك من قوة وحب وخبرة، ووهبتنى كذلك كل ما تملك من أنوثة وعذوبة ورقة وخبرة غير مسبوقة لأنثى.

تجاربى كثيرة.

أعلم جسد المرأة، كبيره وصغيره. أخرج المتعة مما لا يُعتقد فيه أية متعة. وأثير اللذة أقصى ما تكون فى الأماكن التى مات فيها الإحساس. رغم كل ذلك تجربتى مع رخت أحسها الأولى، ربما لثرائها المفرط؟ ربما لجدتها؟

٧

"سلمت يداك أيها العاشق الجميل".

٤

الغرق في قفط

سيـــا

١

أيها الإله العظيم،

المتألق صباح ومساء،

لك التسبيح والحمد.

تُخرج النور فى الطريق المظلم، لتعطى الحياة الفرخ فى بيضته.

تجعل النسيم الرقيق يرتفع إلى حنجرة المخزون، فتزول أسباب كربه وغمته. بعينيك تهدى الجميع فى الأوقات الحالكة.

لا وجود لشىء قبلك.

لا وجود لشىء أعظم منك.

خلقت الأرض. ورفعت السماوات على أعمدتها الأربعة. خلقت العالم والكائنات الموجودة والتى ستوجد.

خلقت نفسك بنفسك.

أنت الينبوع، تروى ظمأ الصحراء. الزمن الذى لا ينقضى. الحقيقة فى أبهى صورها.

بهر الكون ضياؤك،

وعمته أطيافك.

الخلائق كثيرون.

طَوعت لك ذاتى.

فكشفت لى عن ذاتك.

أنت الروح.

أنا الجسد.

متيم بك.

منْ عشق وصل.

قادم إليك يا مالك الحقيقة، يا صاحب الجلالة.

فهل لى من نصيب؟

٢

دخلت على جلالته، فجأة، فى مجلسه قائلاً:

- يا سيدى أقيموا دولة العقل.

سأل متعجباً:

- منْ يكون؟! وكيف دخل؟! أينْ الحراس؟!

- ليس مهماً منْ أنا. المهم ما هو كائن. ولا داعٍ للحراس.

- أمرك عجيب!

همس إلى شخص مهيب إلى جواره. فعقبت:

- إذا تركنا العقل فأيقن أنها النهاية.

وقف ثائراً:

- أتهددنى؟!

- العفو يا صاحب الجلالة. ما أردت غير النصح، العقل هو المنقذ.

مكابراً:

- أتعرف مصلحة البلاد أكثر منى؟!

- المهم منْ يفعل أكثر وأنْ تبقى البلاد.

- البلاد باقية وبخير.

قلت محذراً لآخر مرة:

- الطوفان قادم.

لم يهتم. جلس. وأنهى المقابلة. وأصدر أوامره للفرقة الموسيقية باستكمال العزف، وأنْ تستعد المطربات والراقصات. والتقت ثمرة فاكهة يقضمها. خرجت من قصره على أيدى الحراس. والهم يملؤنى. مضى على هذا اللقاء وقت غير قليل. وبدأ الطوفان تطل بوادره.

***

خُلق الإنسان ليجنى المتعة والعذاب.

يطوفون حول قصرك الكبير. ويقولون فى حسرة وألم يتمزق لهما القلب: "ليس لنا سواك".

كلماتك البسيطة أوحت لى بالكثير.

٣

قال سيدى الحكيم الحبيب وأنا فى مواجهته. بعد أنْ خرج كل منْ بالحجرة:

- احذر من هؤلاء القوم يا سيا. إنهم لا يبحثون إلا عن أنفسهم.
- أمرك يا سيدى الحكمة.
- الحذر يا سيا الحذر!
- أيأمر سيدى بشىء آخر؟
- أدعو لك بالنجاة. صادق الحذر. اجعله الهواء الذى تتنفسه.

٤

خرجت إلى سطح المركب بعد أنْ فرغت من مطالعاتى. اقتربت من عنخ الجالس على حافة المركب ينظر إلى الماء. سُر لما رآنى. جلس معى. سألنى دون مقدمات:

- أتؤمن بخنوم؟
- لمَّ؟
- أتؤمن به؟
- أجل.
- وحده.
- وماذا أنتَ قائل عن الآلهة الأخرى غيره؟
- تجليات له، خصها بعطفه وتبناها برحمته وأضفى عليها بعضاً من صفاته، هو كل الآلهة، واحد تعددت أسماؤه، خلقهم من ذاته وتعهدهم برعايته.
- جميل.
- لمَّ كل هذا يا عنخ؟
- أريد أنْ أعرف.
- تعرف ماذا؟
- أعرف والسلام.
- نور الإيمان يشرق فى قلبك؟

لم يجب ولمحت فى عينيه شيئاً جديداً عليه. ماذا يحدث له؟ وفى ماذا يفكر؟ أيكون ما فى بالى حقيقة؟

منتقلاً إلى موضوع آخر سألنى:

- ما أفضل عمل قمت به؟

- دون شك أعمال الترميم التى قمت بها لآثار أجدادى.

طيور صغيرة تحلق فوق سطح المركب. وقف بعضها على الصارى. نظر إليها عنخ وعمق النظر. تبعته فى النظر. ذكر وأنثى. يداعب الذكاء أنثاه. تهرب منه الأنثى. وتعود. يطير الذكر. تطير وراءه الأنثى. ويعودان سوياً. يحلمان ويحبان ويبنيان.

ما أجمل الحب.

أوحشتنى زوجتى.

أوحشنى الأولاد.

عجِّل بالرحيل والعودة إلى الديار. الأحبة فى الانتظار.

رخـت

١

دخل الليل. حذرت عنخ من مواصلة الإبحار فى هذه الليلة. كنت أريد أنْ يخمد أى أثر للحياة على ظهر هذه المركب، خصوصاً، والمطر وشيك الهطول، وأنْ أتسلل إلى حجرة حور، حتى يحدث ويتم بيننا لقاء شهى، فى ظل هذا الجو المغرى بالحب والعشق والدفء، وألا يرانى أو يشعر بى أحد.

رد عنخ مطمئناً: "لا تقلقى.. إننى ابن لهذه المناطق، عليم بها وببواطن أسرارها". صحت فيه من غيظى: "عنخ، لا داعٍ للإبحار، الليلة، أحس خطراً". لم يقتنع وجهه. رضخ للأمر أسفاً: "أمرك".

٢

الحياة الحب مقطراً.

أردت لقاء المحبوب فى رحاب مين، خصوصاً وقفط تقترب، ملك الحيوية والخصوبة، حتى يشملنا ببركته وتحل علينا وتحفنا هباته ونصل إلى أقصى ما نحلم به. الكل نام. والجو مهيأ، حور سهران لا ينام. نوره مضاء. اقتحمت عليه مخدعه. نظر إلىَّ بابتسامة ماكرة.

- ملتهبة لا تهدأين!!

وأنا أتخلص من ملابسى.

- اعذرنى يا حور؛ فشغفى بك لا حد له، وشوقى إليك عارم. ألهو وأحاول الانشغال بنفسى عنك، فلا أستطيع. أنت الوحيد القادر على إسكات صرخاتى المتأوهة ليل نهار.

وهو يعتصرنى بين يديه.

- سوف أقطعك.

- تقطيعك لذيذ، والسباحة فى مياهك العذبة متعة بلا حدود.

أخرجه، وتداً، أولجه..، لذة..، نشوة..، متعة..، لا أرض تحتى، ولا سماء فوقى، سابحة فى فضاء لا نهائى من المتعة، كل تأوهات نساء العالم، تنبعث من جسدى، عبر فمى الصغير.. افترش بجسده القوى جسدى الثائر، محاولاً احتوائى كليةً.. السباحة فى عالم العشق متعة.

أبرقت السماء وأرعدت. انهمر المطر. لفنا الفراش فى أحضانه الدافئة، الحب ينمو بيننا بشراسة.

الإضاءة خافتة، البخور يضوع عطره الملّهب جسدينا الملتهبين، حور

مستلقٍ على ظهره، فوقه، أنا، صعوداً وهبوطاً.. أداعب جسده الفتى بيدىَّ الصغيرتين.. يداعب نهدىَّ المشتعلين، شوقاً وحرقة، بيدين مدربتين.

قبَّلت حور، تقديراً منى للمساته الساحرة ومهاراته الفائقة. قام يسير فى الحجرة، سار خطوتين. أزاد الإضاءة. ازداد جسدى العارى نورانية. شفَّ. التفت إلىَّ. وبريق عينيه الساحر يغزونى.

- (كأنه يحلم) أعدتنى إلى سنوات الحلم واللهو مع نساء منديس الجميلات. (صمت).. (وصوته يأتى من زمن بعيد).. فى أوقات القيظ والحر، (هائماً). أخرج للنهر. عامر بالنساء. كل ما أريد. والقلب فى شوق إلى المزيد. تنفصل روحى عن جسدى، محاولةً الفرار. أتجرد مما يضجر. اللهو البرىء وترطيب الجسد الأسيان، هدفى. نزول النهر متعة. الماء يغرى القلب بدفقة عشق متواصلة. النساء بجوارى. يسبحن بين يدىَّ. كنز ثمين. يغوص ويطفو. ألهو معهن. أسبح فى أعماقهن. أصل القمة بالقاع. مهاراتى طافت منديس وما حولها، قطف ثمارهن هوايتى..

(قمت أرتدى ملابسى).

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟! لا تمضى والليل يثب إلى مرقده. أبقى معى.

قلت آسفة: "مرة أخرى، حتى لا يشعر ابنى بشىء".

٣

أخاف من حور على العرش، ومع ذلك معه فريسة لا تملك أمرها.. محركى وربى الأعلى. هو نفسه يطرح العقل جانباً ويستسلم تماماً

الاستسلام لتيار النجوى والهوى.. أنا كل ما يرغب، منذ رآنى أول مرة فى منف، عرفت ذلك من نظراته.. أفهم الرجال جيداً وأجيد تحليل نظراتهم. فى عينيه جوع لا يشبع. كل طموحه أنْ تلاصق شفتاه شفتىَّ، وأنْ يعبث بجسدى على راحته، دون خشية، دون رهبة، يفعل به ما يحلو له، دون قيد أو شرط، وتحقق له ما أراد؛ إذ فكرت فى نفس الذى فكر فيه منذ رأيته، وأخذنا نتحين الفرصة التى تجمعنا، سوياً لأول مرة، وها هى حدثت، وتحدث وستحدث..

كأن بيننا لقاء موعود منذ الأزل، وانفجر وقته لحظة لقائنا.

لأول مرة، يلتقى العقل والرغبة، معاً، فى فراش واحد، ترفرف عليه آهات المحبة وتحيطه صرخات اللذة وتمتمات الارتواء.

***

- حور.. إننى مشتعلة.

- مشتعل بحبك منذ الأزل.

تدافع جسدينا، عبر الفراش، يكفى لتدفئة أمة.

- أعبدكَ.

- أعبدكِ.

أتفتح أسفله. ابتلعه فى جوفى المشتعل..

- حور ما نهاية حبنا؟

صمت. نظر إلىَّ بعمق:

- ليس له نهاية.

ليس له نهاية. عشقك أزلى أبدى. كنت أول منْ مارس العشق من البشر. ولم تفتك آخر فنونه.

حور ما أمتعك!!

حور ما أقساك!!

عنخ

١

كلنا ضحايا تلك الآلة العجيبة المسماة بالزمن!! كأننا مربطون فى آلة تدور باستمرار دون توقف على الإطلاق، نعمل تحت سياط القهر. آهات تتلوها أخريات فى صمت محموم حافل بالهمس والصراخ.

انقبض العالم. انهارت الأرض تحت قدمىَّ. رأيت رخت تخرج، فى الليل الأخير من حجرة حور مسرعة، هيئتها تدل على حالها، لم يرحمها الجبان. لماذا حور بالذات؟! هلك قبله كثيرون، وعجز ما لا يحصون!! ألست موجوداً؟! عجز.

إلهذا إذًا لم تكونى تريدين الإبحار ليلة أمس؟! حتى لا تهتزين فوقه أو يهتز فوقك؟! تريدين أنْ تحدث العملية فى سهولة ويسر!!

لعوب بطبعك!!

أكتم أنفاسى حتى لا يعلم أحد. الحزن يلفنى فى طياته ويطوق عنقى. ثورة عارمة تجتاحنى، الهدوء، وإلا فقدت اتزانك..

الحياة الجنون عينه!!

نهر عظيم، الذى يشرب منه المجانين!!

أينْ هو؟

الرغبة داخلى طاغية، ورخت لا تستجيب لنداءاتى. اعقل. أى عقل؟! العقل قمة الجنون.

لحقت بالعالم قبل الفناء بلحظة. الحياة وهم. حلم كبير لم أستيقظ منه بعد. فى حلوها ومرها، عبث ليس من ورائه طائل. الموت وهم. أمر يفرضه الطغاة على الضعاف. الظاهرة الأبدية. لم ينج منه أحد.

أينْ الحقيقة؟!

سيـــا

٥

لاحت بشاير قفط. انقلب الجو. زمجرت الرياح. هطل المطر. اشتد. عصفت الريح بمركبنا دون هوادة أو رحمة. المركب تتقلب على صفحة الماء بعنف تتقاذفها الأمواج يمنة ويسرة. تكاد تغرق. زاد المطر.

حور

عزف الهواء فى الخارج مربداً. الغيوم تريق فى الحجرة ظلمة كالليل. المكان أصبح موحشاً يثير فى نفسى الرهبة ممزوجة بالكآبة.

دخلت رخت.

- الحياة صاخبة بالخارج، وأنت نائم هنا؟

لمعت فى عينىَّ نظرة.

- تعالى.

- أنتَ مجنون!!

- أيوجد عقل أصلاً؟!

خرجت من الحجرة بسرعة. خرجت وراءها. تعصف الأمواج بالمركب.

يزوم النهر عن وجه قبيح. المطر غزير. الماء يحاصرنا بين راحتيه. همست لرخت: "هيا بنا". "أجننت فى مثل هذا الوقت...؟!". همست سعيداً بالفكرة: "عز وقته". أخذتها من يدها.

سيا

٦

رفع عنخ تمثال إيزيس ودعاها أنْ تنجينا من الغرق. وأنْ تمر المركب بسلام ونصل إلى الشاطئ. دعوته جهراً وخفية. ورخ معنا يدعو متعجباً مما يحدث سعيداً به.

حور

٢

ضمنا الفراش بين أحضانه المضطربة. اشتعلت الرغبة داخلى وداخلها. أفصحت عن نفسها. لا أتوانى لحظة واحدة عن تحقيق رغباتى ورغباتها.

- وإنْ غرقنا على هذا الحال؟

هائماً:

- حال جميل. وغرق ممتع غير مسبوق.

سيا

٧

جرف التيار المركب. اصطدمت بالشاطئ.

حور

٣

الزمن يمرق أمام أعيننا كالبرق دون أن ندركه.

سيا

٨

هزتنا الصدمة. أفقنا بعد فترة. وحمدنا الإله على النجاة. الحمد للإله الذى أخرجنا للوجود من العدم. وحفظنا وجوده من العبث.

سألت عنخ ونحن على الشاطئ.

- رأيتك ترفع تمثال إيزيس وتسألها النجاة، أتؤمن بها؟

- تقليد من تقاليد الملاحة.

أى إله أنتَ؟

ما كل هذه الحكمة؟

ما كل هذه الرحمة؟

ما كل هذا العطف؟

ما كل هذا الجمال؟

اكتبنى عندكَ من الشاكرين.

١٠

مع قدوم المساء كان عنخ ومساعداه أصلحوا أشياء بسيطة عطلت فى

المركب. وأصبحت جاهزة للإبحار ثانية بفضل الإله. تحسن الجو. وهدأت الريح. وعادت الحياة إلى ما كانت عليه فى النهر.

١١

فى الصباح التالى خرجت من حجرتى على صوت حور يصيح:

- التفاحة! أينْ التفاحة؟! التفاحة سُرقت؟!

اقتربت منه. وسألته:

- تفاحة؟! أية تفاحة؟!

- تفاحتى.

تقدمت رخت مسرعة. ورخ بطيئاً. أسرع عنخ ومعه شن. سمع شن الحكاية.

قال بعد أنْ صمت حور:

- تفاحة حمراء؟

رد حور متلهفاً.

- أجل.

- رأيتها مع رن.

صاح حور:

- عنخ.. أينْ رن؟

غاب عنخ. وحضر ممسكاً برن.

سأله حور مباشرة: "أين التفاحة يا رن؟"

- لا أعرف.

- هاتها. وخذ ما تريد.

- لا أدرى.
- بالذوق أحسن لك.
- لم أر تفاحاً.

ضربه عنخ. بكى رن بشدة. وامتزج قوله بدمعه:

- لم أر تفاحاً.

صاح عنخ:

- أينْ التفاحة يا رن؟
- لا أعرف.
- لماذا تأخذها؟!
- لم آخذ شيئاً.

حور محتداً:

- طلع التفاحة يا رن. مصيبتك سوداء لو كنتَ أكلتها!

قال شن:

- أكيد أكلها.

نهره عنخ:

- اخرس الآن يا شن؟؟

انكتم شن. ارتفع بكاء رن:

- لم أر تفاحاً. صدقونى.

قال عنخ:

- أهدأ يا سيد حور. كل شىء سيحل.
- كيف يا عنخ؟!
- أينْ التفاحة يا رن؟ (ونظر إلى شن) شن قال إنه رآها معك.

نظر رن إلى شن بضيق وغضب. أخفى شن وجهه عن رن. اندفع رن كالثور الهائج نحوه يضربه صائحاً: "كذاب.. لم أر تفاحاً...".

صمت شن ولم يجب.

خلَّص عنخ بينهما. قال عنخ:

- رن لا يكذب.

وانهال ضرباً على شن قائلاً:

- رن أخذ التفاحة يا شن؟

- انطق يا خلفة الأفاعى. انطق يا ابن اللئيمة. انطق.

ضربه أكثر. نطق شن خائر الصوت:

- لا. لا. لا. يا ريس.

حور متعجباً:

- لا. كيف؟!

- كنت أريد أنْ انتقم من رن؛ لأنه لم يجعلنى أساعده فى رفع الخطاف وفك الشراع.

ضربه عنخ. ركله. فاندفع للأمام مسرعاً. ينكفىء. وأخذ رن فى حضنه يمسح دموعه المنهمرة كماء المطر.

- طول عمرك مظلوم مع ابن اللئيمة هذا.

حور ثائراً:

- لا داعٍ للتمثيل. أريد التفاحة الآن؟

تدخلت رخت:

- شن قال الحقيقة. رن صادق لم يأخذ شيئاً. ابحث عنها حيث تركتها. ربما سقطت فى النهر والمركب توشك على الغرق.

سألت حور:

- أهدأ يا حور. أمتأكد أنه كان معك تفاحة أصلاً؟

- نعم.

- يمكن أنْ تكون تخيلاً فى عقلك أنتَ فقط.

ذاهلاً:

- كيف؟!

ممكن.

٥

الفراق فى طيبة

رخ

١

صحوت على صوت أمى، فى الفجر، يناديني. ماذا تريد؟ فى مثل هذا الوقت؟! أشعر بلذة النوم عندما يُراد إيقاظى، لا مفر علىَّ أنْ أصحو. صوت أمى، عندى، أفضل من صوت كبير الكهنة المزعج. نهضت.

***

لم أتعب كثيراً بفضل أمى.

لم أبذل مجهوداً؟ أى مجهود، حتى ولو فى التفكير، ما دامت بجوارى. الفكر إجهاد للعقل، وإسهاد للقلب. تريد أنْ تفتخر بى. وتحمد الإله أنى ولدت ذكراً حتى تستطيع تحقيق ما تسعى. ولو كنت أنثى، لا تغلب أبداً، حيلها كثيرة ولا تُحصى.

الحياة بحلوها ومرها أتقبلها بلا ضجر. أمى تغضب كثيراً!! لا تأبه بشىء. لا يقف فى طريقها شىء.

***

لم أتعلق بخنوم إلا عن طريقها. لقنتنى عقائده.

***

كما تُسيرنى أمى أسير.

- طيبة اقتربت يا بنى. جهِّز نفسك. عرسك قادم.

طيبة المنتصرة؟ الوصية على كل المدن؟!

- أجل يا أمى. أمرك.

٢

غادرت الفراش.

- بياتريس. لا تتركينى.
- أنتَ ظل لأمك. ولا أجد معك أى تجاوب فى الفراش.
- .....
- عقدت المفاجأة لسانى. مضت كالشهاب البارق. اختفت. وماتت معها أحلى ذكرى فى حياتى. بعدها عافت نفسى النساء... كل النساء.
- .....
- بياتريس لا تنفعك.
- أحبها يا أمى.
- كلمتى لا تُرد. عروسك جاهزة.

صمت. لم تنطق. اعتصرك الضيق ممزوجاً بالخوف. فشلت فى فض غشاء بكارة عروسى يوم زفافى.

.....

نفسى فيضان قاتل. الحزن يكوينى.

رخت

١

طيبة!!

مدينة المدن. قدس أقداس العالم. مرسى الحائر وقِبلة المسافر وحلم العصفور.

طيبة!!

لك فى القلب أكثر من ذكرى. وأكبر من حلم. وأرق من زهرة. وأنصع من أمل.

***

تطلين برأسك الضخم الذى يشبه دائرة يقسمها النهر إلى نصفين. يبدو الحلم وشيك التحقق. ما هى إلاّ لحظات قليلة ويتوج رخ سيداً للعالمين.

أجل يا عزيزى رخ. بوابة المعبد تقترب لتصل إلى عرش العالمين يا رخ. وليكن ما يكون. حور لا تتعجل. صبراً.

اعترضنا رجل!

- ماذا تريدون؟
- قداسة الكاهن الأكبر.
- قداسة الكاهن الأكبر آمون ور؟
- هو.
- أهناك شىء أستطيع القيام به؟
- نريد قداسته فى أمر مهم.
- إنه يتطهر. عليكم بالجلوس فى القاعة الداخلية حتى يصل قداسته.

دخلنا. لحظات وأتى قداسته، بعد أنه فرغ، يحيطه الأتباع والخلصاء. تخرج منه الروائح بطريقة مُنفرة. جلس على مقعده. أشار بيده. تقدمت نحوه. أخبرته بهدفنا. صاح:

- خنوم! خنوم! ما لهذا الزمان هكذا؟! تنسون الجديد وتذكرون القديم دائماً، أم أنها عادة من عادات المصريين المحببة؟!

- يا صاحب القداسة، ليس الأمر أمر قديم أو جديد، نريد أنْ نعرف أينْ هو، الأمر حيوى للغاية.
- سيدى الكريم لا تغضب. ليس بإمكاننا إخباركم.
- ولمَّ أغضب. حسناً يبدو أنْ زيارتكم هذه لنْ تزيد شيئاً. خنوم كما يعلم الجميع كان يسكن إلفنتين. هناك ربما تجدونه. وإنْ وجدتموه، أرجوكم (ضاغطاً على المقطع الأخير بشدة) أنْ تخبرونى.

ملأنا الحزن. ونحن نهم بترك المعبد، نادانا رجل. عرَّف نفسه:

- العراف نينو.

أكمل:

- يا قوم، إننى أعلم ما أنتم قادمون من أجله لقد دُفن بين مقابر وادى الملوك.. دفنه أحد ملوك الدولة الحديثة بعد موته وانتهاء دوره.
- كيف؟!

ثم بتوكيد:

- صدقونى. أنا لا أكذبكم الحديث.

ذهبنا إلى الوادى. وبحثنا عن قبر خنوم الحبيب فيه فلم نجده. ضقنا بما يحدث. واقتربنا من حافة اليأس. صاح حور:

- خنوم لماذا تعذبنا. إننا أحباؤك؟!

وأنا فى يأس:

- ارحمنا فقد طال البحث ونفد الصبر.

ورخ فى ذهول:

- أجل سأكون سيداً للعالمين.. لكنْ كيف؟

٢

حدث انقسام بيننا. قررت ورخ الذهاب إلى قداسته والاعتراف له بما لدينا ربما نجد عنده حلاً. بينما قرر حور إكمال المشوار إلى النهاية وقضاء تلك الليلة عند إحدى صديقاته. خائن. جبان.

معنا سيا يسير صامتاً. فى طريقنا إلى معبد آمون، حيث أردنا الراحة تلك الليلة. قلت لعنخ: "عليك تتبع أثر حور وأنْ تكون أنت بحاره.. لا تجعله يغيرك". صاح: "لكنى تعبت يا سيدتى من الماء والنهر وأتمنى العيش على الأرض حياة الاستقرار". بخبث تمتمت: "سيكون لك ما تريد. ولكن بعد تلك المهمة يا عنخ يا حبيبى". مسحت شعره بيدى. لم يستطع الرفض. وأردفت: "ونعيش جميعاً فى هناء. أجل يا عنخ". تمتم بلا وعى: "أجل يا حبيبتى". رخ وسيا يسبقاننى وعنخ فى المسير. قلت:

- عنخ هيا بنا نلحق بهما.

سعد الكاهن الأكبر بعودتنا. فلما سأل عن حور. أجبته بأنه يقيم عند إحدى صديقاته. فعدَّه من الخارجين عليه. جهزَّ لنا المقام وأكرم وفادتنا. الآن حور فى طريقه إلى دار صديقته!!

حور

١

وقفت أمام بيتها، أنقر بابها. أتذكرنى؟ فاتت فترة غير قصيرة منذ آخر مرة التقينا. كانت ضحكتها ترن فى أذنى عالية. الفرحة تملأ ثغرها. والحب يغذو قلبها. نفرت الحب الصادق. نفرت عشق الطفولة البريئة.

ستسعد حتماً. نفرت؛ قلبى متلهف إليك. أوحشنى طعم شفتيك الحارق. أدفن ذاتى فى ذاتك هروباً من كل شىء.

- حور؟! شىء لا يُصدق؟!

بالأحضان تلاقينا. وبالقبلات تواصلنا.

- نفرت. أوحشتِنى كثيراً.

- وأنتَ أيضاً. أينْ أنتَ يا مكار؟ كل هذا الغياب؟!

لأنى أحبك.

أحمل رايات النصر. وأتقدم الصفوف حتى أصل إلى المقدمة. وأراك يا نفرت وأطبع قبلة معطرة على جبينكِ. وأزرع وردة على خدكِ الأيسر. وأقطف ياسمينة من خدكِ الأيمن. وأفوز ببسمة من ثغركِ العذب.

- ظروف يا نفرت. لما حان الوقت أتيت إلى رحابك.

- الظروف!! دائما تتعلل بالظروف.. قل الصدق ولو مرة.

أحبك.

لا شىء فى الوجود يهمنى. لا فراق يقطع ملايين الأشواق بيننا. الحب فى قلبى مشتعل. قلبى وقلبك معًا. والحب يجمعنا، منْ ذا الذى يقف فى طريقنا؟!

- حبك أقوى من كل الظروف.

- قل شيئا آخر.

أنتِ أنا.

وأنا أنتِ.

الحب ثوبى وحكايتى، والعشق لونى وهوايتى. وأنت مركبى وسفينتى.

رخت

٣

سألت الكاهن الأكبر بعد أن فرغنا من العشاء الذى أعـدَّه لـى ولـه فقـط بناءً على طلبه:

- لماذا لم يتزوج سيدى الأكبر؟

مندهشاً:

- أتزوج؟!

- نعم.

- ولكنى الكاهن الأكبر، حتى أظل شـامخاً فـى أعـين النـاس، فـلا زواج مطلقاً.

- ولكنك تظلم كثيراً من النساء هكذا.

تبسم:

- لمَّ يا عزيزتى؟

- بالطبع قد أمات هذا القرار أحلام نسوة كثيرات.

- قدر يا عزيزتى. ما أقسى قرارات القدر!

- إننا صانعو قراراته. وليس هو.

- كيف يا عزيزتى؟

- المركز بالطبع يضمن لك الوقـار، الآن، وقـد حـلَّ بـالبلاد مـا قـد حـلَّ تستطيع أنْ تفعل ما تريد.

- أفعل ما أريده؟!

- أفهمتنى يا سيدى الأكبر؟

قهقه قائلاً:

- فلنشرب النبيذ المعتق فى حضرة ملك الآلهة آمون العظيم.

يبدو أنك ستنالين ما تريدين يا رخت. التعقل كل التعلق مع هذا الكبير الأحمق. انشغل بك. إلى أينْ الهرب منى يا حور الجميل؟!

فأنا قدر قُدر عليك يا حبيبى فلا تحزن.

- هذا ما أبغى.

٤

دخلت مع قداسته إلى قدس الأقداس، أطهر بقعة فى المعبد. حيث يثوى آمون العظيم فى ناووسه المقدس. فخر كبير لى. مكان لا يدخله سوى الملك أو نائبه فى صحبة الكاهن الأكبر. تفضل علىَّ صاحب القداسة بشىء كبير.

فتح الناووس أطل علينا آمون من علیائه. النفس تروح فى خشوع عميق. قال قداسته:

- اقتربى. لا مسى التمثال. إنه يحبك. يريدك. به شوق إليك. إنه يحب النساء الجميلات ولا شىء غيرهن.

اقتربت من التمثال ألامسه . والوجل على أشده داخلى. وضعت يدى على رأسه. رعشة سرت فى جسدى. احتضننى قداسته بقوة من الخلف.

- رخت. أنتِ كل شىء فى حياتى منذ رأيتك.

- آمون يرانا.. أيصلح هنا؟!

جاء صوته عميقاً فى خفوت:

- هنا أفضل الأماكن.

- انحلت ثيابى...

.....

.....

- دع جسدينا يتحاوران فى صمت، عسى أن يتعرف كلاهما على لغة الآخر.

- عبد للقمر بين فخديك.

- انهل.

- قدرة عجيبة تدفعنى لدفن نفسى فى نفسك!!

- .....

- أسكرتنى خمرة جسدك.

- .....

أينْ أنتَ الآن؟! بين أحضان صديقتك؟! خائن!!

حـــور

٢

- نفرت.....

- حور. اغمرنى أكثر فى جنونك.

نفرت جميلة. صدرها ممتلىء بين يدىَّ. وكذلك فخذاها أسفلى. وشعرها يتهدل على وجهى فى هبوطها وصعودها.

نفرت كيف يصبح الحلم والحقيقة شيئاً واحداً. نفرت أنسينى كل شىء.

رخت

٥

- .....
- حبيبى؟
- لا أشعر بنفسى. لا أستطيع الكلام عن شىء.. دعينى مع أحلامى ولا توقظينى.
- الفجر لاح لابد أنْ تقوم لتدير شؤون المعبد.
- لا سنظل على الوضع القائم.
- المعبد. الخدمة اليومية للإله. آمون العظيم يرانا. الكهنة فى الطريق.
- سحقاً للجميع.
- سيدى إنك تبالغ، رأسك تعرى.
- أجل. من أجلكِ أنتِ..
- أينْ يوجد خنوم؟
- لا أعلم.
- أينْ يوجد؟
- فى جبل السلسلة.
- فقط؟
- ربما فى أماكن أخرى.
- مثل ماذا؟
- لا أعلم.

- أينْ يوجد؟

- لا أعلم؟

لا أمل.

إنى مغادرة.. حتى لا يشعر ابنى بشىء.

- لنْ يشعر بشىء.. إنه مع ورت الآن وهى كفيلة بأن تنسيه الدنيا بما فيها.

٦

انطلق الصباح يعدو، إعلاناً عن بدء الحياة والعمل، فى آفاق طيبة الرحيبة.

استيقظت على صوت رخ فى حجرتى:

- أماه، كل هذا نوم، اصحى.

إننى لم أنم إلى الآن، لو تعلم.

- ماذا تريد يا رخ؟

- ماذا نفعل اليوم؟

- ككل يوم. لا شىء.

٧

بعد أن فرغت من قص حكايتى لقداسته. قلت:

- هذه حكايتى بالتمام والكمال. والرجل فى الشمال ليس بيديه شىء.

نظر إلىَّ بعمق. وتناول قطعة من الحلوى. أكملت:

- وبيدك كل شىء. وعلى آمون دين قديم لخنوم لا بد من سداده.

اندفع نحوى يقبِّلنى. خجلت أنْ يدخل علينا فى مخدعه أحد. خائفة. لا تخافى.

- كل ما تريدينه وزيادة.

كان الوقت ظهراً؛ فأسلم قداسته نفسه للفراش. همَّمت بالخروج.

- إلى أينْ أنتِ ذاهبة؟!

- أتريد قداستكَ شيئاً؟

- تعالى. لا نوم بدونك.

ابتسمت. ولم أخيب رجاءه.

٨

فى المساء، دخلت على سيا حجرته. كان راقداً على الفراش. تجردت من كل شىء. غضَّ بصره. سمعته عنيفاً لأول مرة:

- ارتدى ملابسك. واخرجى كما دخلت. لست كحور.

صدمنى الجبان. حيوان. كيف عرف؟! خاننى حور؟! هزنى صوته.

كرهته بشدة. حيوان. أردت شراءه بجسدى فرفض الجبان. الوحيد الذى رفض. أول مرة يُرفض لى طلب. عنخ البديل. إنه عبد لسيده.

أينْ أنتَ يا حور الجبان؟!

تركتنى لشوقى وجنونى!

بين أحضانها الآن أيها الخائن.

تركتنى للوعتى. تعرف قدر اشتياقى إليك.

صبراً.

عنخ

١

تعقبتها حثيثاً وهى تخرج من حجرة سيا مكتبئة. سيا ليس له فى الحرام. حين رأتنى أشير لها بطرف عينى. أشاحت عنى بوجهها وقالت شبه معترضة:

- ليس الآن.

أدرت وجهى راجعاً. همست بإغراء:

- تعال.

إلى حجرتى المظلمة أبداً، دلفنا. يدى فى يدها. جلال الأبدية يحتضن المكان. تجردنا. فى ظلام الكون المطبق، اندفعت أبحث عن أنثاى. اصطدم الجسدان. ندت عنها صرخة مفزعة. انهمرت القبلات والأحضان. سد مياه انطلق من طول الكبت. لا صوت. يعلو صوت الآهات المغلَّفة بالحث على المزيد. ظلمات هامسة تتحول إلى حركات موحية.

- عنخ. لا أحس شيئاً.

انتفضت من الفراش حانقاً:

- إنها مشكلتى. أحاول خداع نفسى. لكنها الحقيقة.

- لا تشعر بالضيق. حاولت مساعدتك. نحاول مرة أخرى.

أأعجز عن إشباع أنثى؟!!

- قومى. ارتدى ملابسك. واذهبى.

- إلى أينْ تذهب؟

سئمت تكرار المحاولات الفاشلة.

أنتَ يا عنخ يا منْ كنت تتباهى بتعدد غرامياتك، وتتباهى أمامك النساء بحلاوة وطلاوة أجسادهن؛ حتى يلفتن نظركَ إليهن، أنتْ يا عنخ؟!

اصمت. قلبى يتمزق. لا تسوِّد الدُنيا فى عينى أكثر من هذا. اصمت أيها اللعين. سئمت صوتك. وجهك. كل ما فيك. لم أعد أطيقك. أريد الخروج عنك. إلى أينْ؟!

رخت!!

كنتِ بين يدىَّ. فخذلنى ضعفى!! ضاع الحلم فى دوامة الضعف!!

أيها الشيطان اللعين فى جسدى، اخرج، اخرج أيها اللعين، اخرج حتى يتحرر جسدى ويعود، اخرج أرجوك، أتوسل إليكَ، أنا عبدكَ. عبد رحمتكَ.

كم أنت قاسٍ أيها الإله.

السماء والأرض مطويات بيمينك،

والرياح والحياة والموت!!

٢

ذهبت مع سيا إلى حور عند صديقته. أخبرناه بأننا نريد أنْ نكمل الرحلة معه. وافق ورحب. وأحسست أنه وسيا بدأ ينسجمان للمرة الأولى. أرسلت رخت لحور راغبة فى توديعه. رفض أنْ يذهب إليها. أكبرت حور فى نظرى. رجل.

فى صباح اليوم التالى، ونحن على الشاطئ نهِّم بالإقلاع عن طيبة جاءت رخت ورخ . أقبلت على حور. أدبر عنها. أدار عنها وجهه. صاحت به:

- حور، لماذا كل هذا؟!

لم يجب عليها، وتركها.

قال رخ الوديع:

- مع السلامة. تروحون وتجيئون بالسلامة. كنت أتمنى أنْ أجىء معكم. أمى رفضت.

جاءت معنا نفرت الجميلة صديقة حور. أحالت المركب إلى جو من البهجة والسرور والفرحة. بدأ البرد يرحل. أصبح الجو صحواً ومشمساً. والضياء ملأ الأفق.

٦

اليأس فى إسغطا

حـــور

١

المركب بسيطة التكوين. قوية. تحملت الرحلة من منف إلى طيبة بصمود. عنخ فى حركة هادرة عليها. جالس تتأمل. أهو وقت للتأمل؟ أم ندم على شىء بدر؟! لا. لا يوجد ندم قط. أنتَ قوى يا حور. تتأمل عنخ بعينين وجلتين. لا تثق فيه تمام الثقة. أعرف. فى عينيه شىء ما لا يجعلك تطمئن إليه. أعرف. أنت حور العظيم. تقدم. منْ يكون عنخ هذا حتى يشغل بال العظيم؟! احذر السفن العظيمة تحطمها الأحجار الصغير أحياناً. معك نفرت حاول أنْ تنسى كل شىء ولا تظهر أمامها شيئاً. اصمد. عنخ يقول:

- سيدى البرد يطل بظلاله. الجو انقلب ثانيةً. عليك الدخول إلى حجرتك، حتى لا تتعرض لأثره.

النزول لأسفل، أم الصعود لأعلى. هذا هو السؤال؟

- كن فى عملك يا عنخ.

- أمر سيدى. ولكننى..

- لا تكمل. أكره النصائح (همساً) الغثة.

لا ليس نصائحكم أنتم. أيها الحكماء. لا كره لها عندى بالمرة.

أوشكت الشمس على المغيب. القرص أحمر تكسوه ظلمة. أية ظلمة؟! نادانى عنخ:

- سيدى العشاء يُعد..

نزلت. عشاء. طعام. حياة الدنيويين. رحم الإله حكيمنا آمنموبى* العظيم! أعد عنخ المائدة. جلست تنظر ونفرت إلى جوارك. انظر إليها بل ريقها السائل وارحم نبضها المتحرق. وعنخ بجوار سيا. فرغنا من الطعام. بدأ عنخ الحديث:

- سيدى إنك، لا تعلم حكايتى بالطبع.

- وما حكايتك؟

- إننى أكره شيئين فى حياتى: الحياة على الرغم من تسميتى عنخ!! حتى أحيا على ما يُظن!! والماء وخاصة ماء النهر أخافه بشدة. ولا أعلم ما الذى دفعنى للعمل بالملاحة فيه!

تبسطت معه عسى أنْ أفهمه أكثر:

- حب الحياة أو كرهها أمر يخصك، لكن كراهيتك للنهر أمر محير فعلاً!

- أجل سيدى، لشدة ما سمعت عنه من أساطير تحكى عن بطشه وقوته.. فى صغرى كنت أرهبه. أخافه بشدة وأذكر المرات القلائل التى أجُبرت على الاستحمام فيه وكم من مرة كلفت أمى بالتبنى بحمل الماء لى لاستحم به فى البيت مخافة الذهاب إليه. وكم كنت أخاف عليها منه. حتى أنى كنت أجلس أبكى خاشياً أنْ يبتلعها. أو أنْ تبتلعها تماسيحه.

- أجل إنها التماسيح. إنه سوبك** العظيم الذى أحدَّث فى قلبك هذا.

- ربما.

- إنك تملك مشاعر عظيمة يا عنخ ولتكن إرادة الإله ولتحيا حياة أبدية مع النجوم الزاهرة التى لا تغيب.

---

* آمنموبى حكيم مصرى قديم عاش فى الدولة الحديثة.

** سوبك معبود مصرى قديم على هيئة التمساح.

- شكراً سيدى على هذا الشعور النبيل.

تحاول خداعى يا عنخ؟! وقعت مع حور!!

- عنخ. قلت أمك بالتبنى؟!

- أجل، أمرة عانس ربتنى.

- وأهلك الأصليون؟

- لا أدرى عنهم شيئاً.

***

فى المساء، ضمنى صدر نفرت الحانى، فى حجرتها، ألقيت برأسى عليه محاولاً النسيان والتسرية عن نفسى. نفرت حنون إلى أقصى درجة. أحبها. لا تبخل علىَّ بشىء. خففَّت عنى الكثير بقدومها معى. الكل ضدك يا حور. نفرت. وأنت تقف فى العراء وحدك. نفرت. احذر من الطعنات مسددة نحوك من حيث لا تدرى. نفرت. ظهرك مكشوف. وكلك مكشوف. والذئاب المحيطة بك كثيرة. نفرت صدر حانٍ واحد فقط لا يكفى فى كل هذه الدنيا الهائلة الحجم.. نفرت.. تهفو لملامسته ونسيان همومك فوقه. نفرت. نفرت..

- ما بك يا حور؟!

- أنسينى جزعى وقلقى وهمومى وأذقينى حلو ثمراتك. أقبلى. وأقبلت...

سيا

١

يا أيها الإله الجميل،

يا صانع المجد،

يا صانع البشر،

يا صانع السماء

اعف عنا،

نحن الضعفاء.

الوجود معلق بين إصبعين من كفك،

يا أيها الإله الطيب،

يا صانع النجم،

يا صانع القمر،

للنور وللعاشقين،

اصفح صفحاً جميلاً،

عن المخطئين.

***

فى عمق الليل، اقترب منى عنخ، وأنا مستند بذراعى إلى مؤخرة المركب.

وسألنى:

- ألم تغازلك أمواج السياسة يوماً؟

أجبت:

- أحب شىء إلى قلبى أنْ ألقاه بقلب خاشع ونفس مطمئنة.

- لم تجبنى.

- أعيش فى هذه الحياة عيشة الزاهد فى كل شىء عدا نور وجهه.

صاح غاضباً:

- لم ينج أحد منا من مغازلة أمواج السياسة.

- .....

عنخ

١

فى الصباح توقفت المركب بسبب نوم الريح. دخلت حجرة حور. لم أجده. قلت أبحث عنه عند نفرت. دخلت حجرتها. معبقة برائحة مضاجعة طاغية. أحس أنى ضاجعت امرأة ذات مساء، حسناء الرداء، طيبة الجسد، فواحة العطر، كنفرت. يا لك من محظوظ يا حور. عنخ؟ نعم. ما يذهب لا يعود. لا تذكِّرنى. كدت أنسى. ذكِّرنى حور الفحل الملعون ونفرت المرأة المشتهاة.

كلما طالت الرحلة، يصعب الأمل فى النجاة أو العودة. عرفت ليلة أمس حكاية رخت كاملة من حور. تدعى أن خنوم ضاجعها!! يا لها من كذَّابة كبيرة!! سيا كاد يُجنَّ مما سمع. وحور يحكى الحكاية متعجباً. ونفرت تضحك ملء فيها الملهب. شفتاها ناريتان.

***

فى صباح اليوم التالى رأيت أطلال إسنا* تلوح فى الأفق. اقتربت من حور وهو جالس مع نفرت على سطح المركب يتحدثان:

- إسنا تقترب يا سيد حور.

- عجِّل بالنهاية يا عنخ. لم يعد هناك صبر لتحمل المحاولات الفاشلة. أنت أيضاً لك محاولات فاشلة. لست وحدى إذًا!

- فلنجرب.. لنْ نخسر شيئاً..

اقترب سيا. عرف الموضوع. اقترح:

- إسنا مركز مهم من مراكز عبادته. نجرب يا حور.

لم يتكلم حور. لم يعترض واستجاب لنظرة من عينىَّ نفرت الفاتنتين.

---

* إسنا مدينة فى صعيد مصر، جنوب الأقصر، محافظة الأقصر حاليًا.

سـيا

٢

خلقت الذكر والأنثى. وفى رحابك التقيا. شكلت المولود. صنعت الرأس. وشكلت الوجه لتعطى لـه ملامحـه. وجعلـت العينـين تنتفخـان. وفتحـت الأذنين. وجعلت الفم لتناول الطعام. وشكلت الأسنان للمضغ. وفصلـت اللسان ليمكِّنه من الكلام. وجعلت العنق للبلع. وأوجدت العمود الفقرى دعامة. واليدين وأصابعهما لتقوم بعملها. والقلب ليقود وأوجـدت عضـو الحياة للجماع وليقذف وينتفخ عنـد ضـم الفخـذين. والخصـيتين اللتـين يرتجـف بسـببهما الفخـذ عنـد الجمـاع، سـنداً لعضـو التـذكير والعمليـة الجنسية. والرحم لتلقى النطفة. منـذ بـدأت عمليـة الخلـق. لـم تتوقـف العجلة عن الدوران؛ لذا تعبدك جميع المخلوقات.*

هبطنا على ضفة النهر حيث إسـنا. وتوجهنا إلـى المعبـد الشـاهق الـذى شق الوجود إلى وجودين: وجود إلهى، وآخر دنيوى. يظل الوجود بفيض مـن نـوره وجلالـه. تقـيم السـماء فـوق أعمـدتها الأربعـة وترفعهـا مـن الأبدية. بناء ضخم وفخم. دخلنا الصـالة الأماميـة ذات التيجـان الفخمـة الرائعة. لا أحد. الكورنيش المقوس فوق رؤوسنا. لا أحد. ارتقينا درجات إلى البهو الفسيح العظيم. بعث فينـا الرهبـة ذلـك الـرواق المظلـم مـن الجحـيم. علـى جدرانـه الملـوك يقـدمون القـرابين إليـه وحـده. هـذا تحـوتمس الثالـث**. وهـذا أمنحتـب الثالـث**. وهـذا رمسـيس الثـانى العظيم**. لوَّنت الشطآن بالزهور.

---

* نص مصرى قديم (نقلاً عن ك. لالويت: نصوص مقدسة...، مج٢، مترجم، القاهرة، ١٩٩٦).

** أشهر فراعنة مصر القديمة على الإطلاق وأعظمهم ثراءً وملكاً وفتوحات حربية.

رفعت السماء، وسندت القبة الزرقاء، ونشرت النور فيها، ساطعاً مشعاً.
ثم أقمت فيها.
وبسطت الأرض فوق قواعدها، وأضئت الأرضين بنور عينيك.
من أجلك يتجلى الوجود.
من وجود تنهل الكائنات وجودها.*
الملك فى صحبة حورس** والإله يسبحون شبكة صيد مليئة بالطيور المائية والسمك بينما يراقبهم تحوت***.
ملأت الأرض بجمالكَ. أنتَ الضياء تنبع حيث تشاء.
ما من عمل بدونكَ. جئت بالآلهة إلى العالم ليملأوا الأرض.*
الصالة الداخلية. لا أحد. قدس الأقداس. لا أحد. أينْ ذهب الكهنة؟!
أينْ ذهبوا؟! أينْ ذهب البشر؟! أينْ ذهبوا؟!

***

فى طريق العودة إلى المركب. كانت حالة حور سيئة للغاية. ركبه اليأس والهم. حاولنا التفريج عنه. لكنه لم يكن يريد أنْ يستمع لأحد حتى صديقته نفرت.

حـــور

٢

فى المساء دخلت حجرتى نفرت.
- حور. ما بك؟

** حورس ابن إيزيس وأوزيريس، صقر السماء والأفق.
*** تحوت إله العلم والمعرفة والحكمة.

- لا شىء.
- كل هذا من أجل أنك لم تعثر على شىء يهديك فى إسنا؟!
- لا شىء.
- حالك يقلقنى يا حبيبى. ما بك؟
- لا شىء.

جلست بجوارى. وأنا غائب تماماً عنها. ماذا حدث يا حور حقيقة؟! غضبت من رخت؟ نعم. لهذا الحد؟! هذا لا يجوز؟! أتحبها يا حور؟ لا. إذًا ما بك؟! لا شىء. كيف؟! اقنعنى؟! لا شىء. قلت لا شىء.

- حور فيم أنت سارح؟!
- لا شىء.
- حور. كل ما أقول لك شيئاً تقول لا شىء. ألا تعرف شيئاً غير لا شىء.
- لا شىء.

غنت. رقصت. محاوِّلة الترفيه عنى. غائب عما يدور حولى. أحس أنى أحادث شخصاً وأرى شبحاً. ماذا أقول وماذا أفعل وماذا أرى؟ لا شىء.

- حور ألق برأسك على صدرى.

ألقيت به. انهمرت فى بكاء عميق. هلعت لحالى.

- حور.. حور!! ما بك؟ انطق لا تفزعنى عليك.
- ضللت الطريق.
- أى طريق؟!

تاه طريقى إليه. ومن ثم طريقى إلى العرش. إلى المجد. ونجحت رخت. نجحت. نجحت امرأة. وفشلت أنتَ يا حور!! اصمت.

عنخ

٢

حال سيدى حور سيىء للغاية. غرق فى صمت تام. ماذا حدث له؟! لا أدرى. قرأ عليه سيدى سيا كل تعاويذه المنجيات. ربما يكون فيها الشفاء. وحور على حاله لم يتحسن. سيا يتعجب. حزين على حاله حقيقة. ربط بينهما هم مشترك. لا أدرى ماذا. نفرت معنا ومعه لا تفارقه. تسهر على راحته. تسأل سيا. وتعود تصنع ما يأمر به. الأيام تمرّ. وسيا دمعه لا يفارق خديه منذ ألمّ الضيق بسيدى حور. وملأ المركب حزن عميق على حال حور تسرب أثره إلى شن ورن الضاحكين دائما. ازداد اكتئاباً. حور ارجع كما كنت. ارجع.. أوقفت المركب فى إسنا الحزينة منذ مرض حور. لم نحاول تركها حتى لا يشعر بأى ألم أو تعب أو دوار يسبِّبه له الإبحار. ذات صباح. قال سيا:

- اقلع يا عنخ.
- سيدى سيا، ماذا تقول؟!
- ما سمعت.
- والسيد حور؟
- لو تركنا إسنا سوف يعود إلى حالته. فى تركها الشفاء.
- أمرك.

وافقته نفرت الجميلة. وسارت المركب فى طريقها المرسوم نحو الجنوب. لم يعد هناك أمل كما قال سيا سوى فى إلفنتين. هى الأمل. وهى النجاة. كلما طالت الرحلة صعب الأمل فى النجاة أو فى العودة. حور. عد يا حور. عد أرجوك. لا تزدنى اكتئاباً. لا تفسد علينا بهجتنا الكاذبة.

٧

الأمل فى إلفنتين

حـــور

١

- حور؟
- نعم.
- أنت الذكر المبارك، حامى أبيه، فلا تيأس.
- أجل.

***

لاحت تباشير الصباح. إلفنتين* الجميلة تتهادى كطفل وديع فى مهده. مرحباً بك يا موطن خنوم أبى الآلهة أجمعين. يا ترى أأراه أخيراً، أم على وجهى أظل هائماً؟ صافحنى عنخ لدى ظهورى على سطح المركب فى الصباح الباكر. البهجة والسرور بلغت حدها الأقصى بشن ورن عند رؤيتى خارجاً من حجرتى فى صحبة نفرت. عادت الحياة السعيدة للمركب مرة أخرى. كم أحبنى هؤلاء، وأحببتهم! سيا، دائماً أنتَ هكذا يا سيا، الجندى المجهول فى أى عمل تقوم بالحد الأقصى من العمل، وساعة التكريم والمكافأة تختفى. أينْ هو؟

- فى حجرته، يرتل أوراقه، ويحمد الإله على نجاتك.
- ما أطيب قلب سيا!
- تريده؟
- نعم.

جاء سيا يتعثر فى خطاه.

- لا شىء يا سيدى حور. إنه الواجب.

---

* إلفنتين جزيرة فى النيل فى مواجهة مدينة أسوان.

- واجب! أى واجب! إنَ ما فعلته يا سيا يفوق أى واجب. إنه اقترب من حد الفداء والتضحية.
- شكراً يا سيا.
- الشكر كل الشكر له وحده، هو المَّناح المَّناع... الشافى المعافى.

٢

إلفنتين. مدينة الحدود. بداية البداية. وحاضرة الإقليم الأول. المدينة القلعة. المحصنة بحماية خنوم. قلبه الخافق بالنور والضياء، والعشق والصفاء. المدينة المعلَّقة. جعل فيك منابع النهر، التى لا قرار لها، يتدفق النهر من العالم السفلى إلى الأرض، عبر كهفين، لا يفتحان إلا بأمره، يفتح يديه فتنساب المياه منهما، نصفها إلى الجنوب، ونصفها الآخر إلى الشمال.

يا رب المياه الباردة.

رب لكل الجنوب من البلاد، تشترك معك إيزيس* كأم حامية ترعى أبناءها حتى يكبروا.

يا نسمة الضوء المبدِّدة ظلام الوجود والنفوس إهدٍ إلىَّ طريقى.

٣

حكى لى سيدى كبير كهنة منديس قائلاً:

* إيزيس الإلهة الأم، أم حورس، زوجة أوزيريس، أشهر إلهات العالم القديم، عبدها الإغريق والرومان أيضاً.

حدث فى عهد الملك زوسر* العظيم بانى الهرم المدرج، مجاعة كبرى، استمرت فترة طويلة، عزّ الفيضان، سبع سنوات، نقص محصول القمح، وانعدمت الخضروات، وكذلك الطعام، وسرق كل شخص جاره، لا شىء بالشون سوى الهواء، كل شىء فى حالة من الخراب.

حزن قلب جلالته، وهو جالس فوق عرشه العظيم، وتألم بسبب هذه المصيبة الكبرى.

وأراد جلالته أنْ يتحرى الأصول والأسباب لما حاق ببلده من خراب، فاستدعى رئيس الكهنة المرتلين.** الحكيم إيمحتب*** العظيم، وطلب إليه أنْ يتعرف على منبع النهر والإله الذى يجمع ماءه.

فاختلى إيمحتب العظيم بمخطوطاته، وعاد إلى الفرعون يخبره بأن ثمة بقعة طاهرة، تسيطر على النهر والنبع تسمى إلفنتين، وهى المهد الذى ينشأ الفيضان عنده ويتجمع. ولما سمع زوسر هذه الفتوى سارع بتقديم الأضاحى والقرابين لأرباب وربات إلفنتين. ولما جنّ الليل عليه رأى الإله خنوم فيما يرى النائم يحدِّثه جهرة ويقول: "أنا خنوم خالقك، أنا منْ يرسل يديه من ورائك لأكفل لك التأييد وأهب بدنك العافية، أنا الذى أوجدت اليابسة، ووهبتك أحجار الجرانيت منذ القدم، فشاد الناس بها المعابد وجددَّوا بها المتهدم، أنا نون**** العظيم الموجود منذ الأزل، أنا الفيضان الذى يرتفع حيث شاء".

---

* زوسر صاحب الهرم المدرج الشهير فى سقارة، من أعظم ملوك الأسرة الثالثة والدولة القديمة وعصر بناة الأهرام.

** الكهنة المرتلون طبقة من الكهنة وطائفة دورها تلاوة الأدعيات والأناشيد والطقوس.

*** إيمحتب المهندس المعمارى العبقرى الذى بنى هرم الملك زوسر، أول بناء حجرى فى التاريخ أُستخدم فيه الحجر على نطاق واسع، حكيم وطبيب أيضاً، عبده الإغريق واعتبروه إلهاً للطب، كان وزيراً للملك زوسر.

**** نون المحيط الأزلى العظيم الذى بدأت به نشأة الكون وفقًا لمعتقدات الفراعنة.

أفاق الفرعون من رؤياه، وآمن بأن صاحب السيطرة الحقيقية فى منطقة إلفنتين هو خنوم دون غيره. واعتزم أنْ يوقف خيرات المنطقة لصالحه وحده وأنْ يجعل لمعبده الحق فى تحصيل ضريبة من صيادى السمك والطير وكل منْ يعيش من نتاج النهر وكذلك من عمال مناجم الذهب وقادة القوافل الذين يعودون بطريق إلفنتين من الصحراء.

وأصدر جلالته مرسوماً خاصاً، خاطب فيه خنوم قائلاً:

"جعلت حدك الغربى جبال مانون، وحدك الشرقى جبال بخت، من إلفنتين إلى المحرقة تسعون ميلاً، بما فى ذلك الضفة الشرقية والغربية، من أراضى الزراعة وضروب الصحراء ومجرى النهر وكل مكان يقع فى دائرة الأميال المذكورة سابقاً."*

***

وماذا حدث بعد ذلك يا سيدى؟

- رضى الرب وأتى الفرج. وازدادت البلاد انتعاشاً.

واستدرك سيدى كبير الكهنة:

- أرأيت يا حور كيف كان خنوم عظيماً؟

- رأيت.

***

يا منْ أنقذت زوسر فى القدم، انقذنى الآن.

* عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها، ج١، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣١٢ - ٣١٣، (بتصرف)؛ انظر أيضاً: جيمس بيكى: الآثار المصرية فى وادى النيل، ج٤، مترجم، القاهرة، ١٩٨٧.

٤

نزلنا بالجزيرة الجميلة. قطعة من الجنة. بقعة من روحك الطاهرة يا خنوم، خلقتها لنفسك ولم تحرم الخلق من التمتع بجمالها. يحضتنها النهر فى عشق أبدى، لا يريد الانفصال عنك أبداً. بخْر النهر يتصاعد. يغشى الجزيرة المغلَّفة بالسحر والضياء الممزوج بالغيوم الهادئة.

تركنا رصيف الهبوط والرسو والإقلاع إلى عمق الجزيرة. شعاع الشمس ارتفع. اهتزت الزهور لضوئه. ترقرت قطرات الندى متراقصة فوق الأغصان والأوراق والأزهار. فراشات كثيرة تحط على الزهور بعذوبة ورقة تمتص رحقيها. تطير لدى إحساسها بنا. أقلقنا مسيرتها الأبدية البارعة.

ذهبنا إلى معبده الرئيسى. المعبد متواضع للغاية لا يليق بقدْر خنوم أو عظمته. هو دائماً هكذا يحب التواضع إلى درجة الرثاء. همنا على وجوهنا. لا أحد يدلنا. لا شىء. لا وجود له. كيف؟ أبعد كل هذا! يبدو أن القلق سوف يعاودنى ثانية!

قابلنا رجلاً قميئاً مصادفة. اصطدمت به. لم أره. صاح:

- انظر أمامك جيداً.

نظرت حولى أبحث عن الصوت. بعد عذاب استطعت تحديد مكانه. بعد أنْ أقلقنى صوته.

سألته عن خنوم. قال علَّه يسكن أعلى الجزيرة، أسفلها لا شىء، لا يحب المراسم ولا الرسميات، إنه شعبى يعيش بين الحفاة والعراة، كنت أراه دائماً يشير إلىَّ بإصبعه؛ كى أنضم إلى قافلته الناجية، لكنى كنت أتغاضى عنه. دائماً يلبس رداءه المميز لا أستطيع وصفه. يُفهم منه أنه خنوم.

٥

صعدنا إلى أعلى قمة الجزيرة. لم نجد شيئاً. أخبرنا رجل ضخم بأن هناك شجرة مباركة يظهر تحتها الإله عند الغروب. بعد أنْ يكون قد عاد من أسفاره المتعددة. يلتقط تحتها أنفاسه ويحصى ما صنع بيومه ويخطِّط لغده. هذا هو خنوم.

ذهبنا إليها ومكثنا تحتها وقتاً طويلاً. أوشك الليل على الانتهاء. لم نجد شيئاً.. لغز كبير تاهت فيه العقول.

٦

جاء رجل من أقصى المدينة يسعى، لمَّا علم بحكايتنا، إلى المركب فى الصباح التالى، قال:

- يا قوم لا تقلقوا، صدقونى. دفنته بيدىَّ (وهو يشير إلى يديه) هاتين منذ زمن لا أذكره. ولكى تصدقونى تعالوا معى، إلى بيتى، حتى تروا عجلته التى كان يشِّكل عليها البشر من الصلصال، أيها الإله الفخرانى تشكل البشر على عجلتك الساحرة، وتتركهم يشقون فى البحث عنك، احتفظت بها للذكرى. وتدّر علىَّ، الآن، دخلاً ليس بالقليل. فى قبة الهواء* كان قبره موجوداً، لا أثر له الآن، بفعل الزمن انقضى كل شىء.

صاح فيه سيا، لأول مرة يصيح!!:

- كذاب.. كذاب..

* قبة الهواء مقابر نبلاء وحكام أسوان، زمن الفراعنة، وتقع على البر الغربى، أمام مدينة أسوان.

- تعالوا وشاهدوا بأنفسكم.. وإنْ كنت كاذباً معكم الحق وأنا المخطىء.

عقبَّ سيا:

- هذا الرجل كذاَّب.

قال الرجل:

- دائما أنت يا خنوم هكذا، ترهق منْ يبحث عنك، وتأتى منْ لا يبحث عنك، عجيب هو أمرك حقاً!!

٧

ذهبنا معه. نفرت تخفَّف عنى خائفة أنْ يكون كلام الرجل حقيقة. لم أصدق ما رأيت. العجلة موجودة بالفعل، والمشاهدون كثيرون جداً. فى طريق العودة انتابنى الشك. هل الرجل صادق؟! أم سيا الصادق؟ رفض أنْ يأتى معنا. ومكث فى المركب مؤمناً به إيماناً لا يتزلزل. أينْ الحقيقة؟ قلبى يتمزق. وعقلى يشك.

٨

قال سيا وهو فى استقبالنا:

- هذا الرجل كذَّاب يا حور كذَّاب. إنْ الحقيقة الأولى والزمن لا ينقضيان.

لم أجب بشىء.

- صاح سيا منبهاً:

- حور إياك والشك. لو تسرب إلى قلبك فأيقن أنها النهاية، لم يمت، لم يمضِ أصلاً.

واستدرك:

- فُطرت على الإيمان به قبل أنْ أكون وبعد أنْ كنت. وكن أنتَ كذلك.

عنخ صامت. خائف من شيء ما. يخشى أنْ أعود إلى حالتى الأولى على ما يبدو. لا يا عنخ لا تقلق. الضربة الأولى قوت من الجسد النحيل والنفس الضعيفة. بدأ العقل يتحرك. ومنذ بدأ تحركه، فلا فشل بالمرة. والنهاية المأمولة ستأتى إما بالقوة أو بالرضا. ولتكن الإرادة وليكن الانتصار ولتحل البركة وليشملنا فى رحمته.

٩

فى المساء شملنى عطف نفرت بسخاء لم أتلقَّه من قبل، محاوِّلةً التعويض عما فاتنا من الشهد المصفَّى والعسل المقطَّر.

- قلقان يا حور.

- لا تهتمى. حور قوى. لا يضعف أبداً.

١٠

"وإنْ عجزت عن طريقه، فسأذكر لك ما لم أستطع ذكره فى منديس. نم، سآتيك فى المنام ولتكن الهداية".

نمت. تحايلت على النوم. لماذا لم تأتِ يا سيدى كبير الكهنة؟! أليس هذا كلامكَ؟! عندما تحل بى أقصى الشدائد؟! لقد حلت بى منذ فترة. انقذنى من وهدة السقوط وقسوة التردى. نمت.

الكبير يأتى. لا يستطيع. هذه بوادره. أليست هذه سحنته؟ تظهر وتختفى. بالطبع هو آتٍ.

لا أسمع صوتاً. لا. أسمع صوته: "أجل يا ولدى إنه فى فيله*، ابحث عنه عند الركن الغربى منها ولا تخف من الأرواح الخالدة التى هناك تهيمن ولا تنس أناشيده وأنت ذاهب".

١١

الصباح مشرق عبر وجه نفرت الجميل. عنخ ومساعداه فى حركة دائبة استعداداً للأبحار. سيا يجلس وحده يتأمل. وشن يرفع السقالة. جاء رجل يقول:

- أريد السيد حور.

استقبلت الرجل فى حجرتى وحدى. قال بعد أنْ جلس:

- لا تصدق ما حدث فى قبة الهواء، إنها لعبة لإثنائك عن هدفك.

- منْ أنتَ؟

- ليس مهماً. إنه فى أعلى البلاد، فى فيله، يعلِّم الناس، ويرعى مصالحهم، هذا هو خنوم، رأيته فى الموسم الماضى.

- متأكد؟

- مثل تأكدى من أننى معك.

* فيلة جزيرة جميلة، أعلى النيل، جنوب أسوان، كان بها معبد رائع للإلهة إيزيس، نُقل إلى جزيرة "إيجيليكا"، حفاظاً عليه من ماء النهر، ضمن مشروع إنقاذ آثار النوبة.

٨

السراب فى فيله

حـــور

١

تقريباً وصلت فيله. كتلة الصخر المختلطة بدماء الغدر والخيانة، تراكم طمى النهر الأسود القاتم محاولاً أنْ يدفن الحقيقة ويُنسى الماضى. البقعة المقدسة التى دُفن فيها أحد أعضاء جسد أبيك أوزيريس الممزق يا حور. الانتقام واجب يا حـــور. الفداء لا مهرب منه. أوزيريس أبوك يتألم فى مرقده. انتقم. كبرت يا حـــور وأصبحت رجلاً وتحول سهم الخيانة إلى أفكار ومؤامرات. حاول أنْ تفهم الموقف. وتستنتج النهاية. وتبدأ قبل أنْ يُسدل الستار. لتقتحم القدر فى عقر داره. وتسدِّد له طعنة صائبة فى عنقه لا نجاة من بعدها أبداً. حور مستعد؟ أجل. متى تبدأ؟ بدأت بالفعل. قبل أنْ يُخط البدء على وجه الحياة. جميل. وصدرى ملىء بالصراع. والحقد يغلى له رأسى. ويدى قوية عفية لنْ تعجز عن توجيه ضربة مباغتة لحقيقة واهية. اقتل يا حور. اضرب. اطعن. لم يعد هناك وقت للتأمل. ثوانٍ قليلة وتُحسم النهاية بضربة من يدك. أو تكون نهايتك على يد أخرى تعلمها جيداً. معى؟ معك. مائة فى المائة؟ بل أكثر من هذا بكثير. اتفقنا.

خنوم سيد فيله. رب الوميض المندفع كالسهم معك. أمك إيزيس سيدة فيله معك. شاركهما السيادة.

الأشجار والورود وأشجار النخيل تتمايل برؤوسها الحقيرة محاوِّلةً حجب الحقيقة، فيله صخورك الضخمة، أخفت الحقيقة لمصلحة منْ؟ سرنا فى طريق المعبد. يا له من يوم غريب أشرقت شمسه ولنْ تغرب. اليوم! اليوم لحظة فارقة فى زمن يقترب من الاحتضار.

الصرح كبير. لا كبير غيرك. المسلتان أمامه جميلتان. لا جميل غيرك. البوابة ضخمة. أنت كل شيء. لا شيء غيرك. تلوح فى الأفق شاهدة على اندثار الحقيقة المطلقة فى زمن الوهم والغفلة والهيام المتناهى. على العتب الملك يتذلل أمام خنوم. ادخل إلى ساحة الفناء المفتوح ذى الأعمدة ذات التيجان الزهرية وسعف النخيل.. كم أحيا وكم أمات. انظر بين الأعمدة ستائر حجرية متوجة بأفاريز من الحيات المقدسة علامة الصحو واليقظة والخيانة.

تعلَّم يا حور. العتب يتكىء على الأعمدة حتى لا تبوح بالسر. انبش الأعمدة. ادفن يدك فى بطنها سوف تبوح لك بالسر. عند أمك إيزيس الحقيقة المطلقة.

ميلادك فى أحراش الدلتا، فى أدغال البردى مسجل على جدران المعبد. طفولتك مسجلة. أمك تهرب بك بعيداً عن عين عمك الشرير ست حتى لا يقتلك. تخفيك فى أحراش الدلتا. البقرة حتحور ترضعك.

انظر أنت متوج بتاج كيمت المزدوج، تاج الشمال وتاج الجنوب. أمك إيزيس تحملك بين يديها ترضعك. القِ نظرة بعيداً. أمك تجمع أجزاء أبيك أوزيريس الممزقة. اقترب قليلاً. أمك تحمل بك من أبيك أوزيريس العظيم. ابتعد كثيراً. أبوك أوزيريس يحكم العالم بالعدل والخير يعمَّ والحكمة لها مثل أعلى. تقدم قليلاً. عمك ست يحقد على أبيك. يدبر له مؤامرة لقتله. يمزقه إرباً إرباً.

ست الهدف. الشر مجسد فى شخص. اقتله يا حور حتى تتخلص الإنسانية من معاناتها الأبدية. اجتز رواق المعبد. السقف مزين بنجوم صفراء على أرضية زرقاء. أينْ الوهم وأينْ الحقيقة؟

ادخل الهيكل. لا شىء يفصلك عن أبيك وأمك. احتضنها بقوة حتى تبتعث فيك الحياة مرة أخرى. وانجُ بنفسك من كل هذا الحمل الثقيل الذى تحمله وحدك.

- إلى أينْ أنت ذاهب؟

- الهيكل.

- ممنوع.

- أتمنعنى!! ألا تعرف منْ أكون؟!

- منْ تكون يعنى؟! الملك؟!

- أعظم.

- لقد جُننت.

- إننى حور، ابن إيزيس.

- أى أيزيس تقصد؟

- ربتكم المقدسة.

- عاقل أنت أم مجنون؟

- فى قمة العقل والجنون.

- اذهب حالك.

- سوف أدخل ولنْ يمنعنى عن أمى أحد.

حاولت اقتحام قدس الأقداس*. منعنى أحد الحراس بالقوة. "الويل لكم كل الويل. سوف تخسف بكم الأرض عندما تعلم ما حدث لابنها فى معبدها. حور يُمنع من زيارة والدته والبكاء بين يديها؟! الرحمة أيتها السماء؟! الرحمة!! أتيت إليك يا أمى. منعنى الكلاب من اجتياز الباب.

* أقدس بقعة فى المعبد المصرى القديم حيث كان يوجد تمثال المعبود أو المعبودة.

أمى. خاطرى مضطرب. قلبى يضطرم بالعنف. سأدق عنق منْ يقف فى مواجهتى". كررت المحاولة. وقف كبير الكهنة فى وجهى. كدت أخنقه. أنقذه من بين يدىَّ سيا. شىء يهدى إلىَّ طريقى المفقود. على أى أرض تحط قدماك؟ سابح أنت فى الفضاء. السماء ملبدة بالغيوم. الوجود أصبح عدماً. وأصبح العدم أغلى من الياقوت. اضرب يا حور اضرب. هزنى صوت سيا وهو يهزنى بقوة:

- حـور.. اعقل يا حور أفق يا حور.

تلفت حولى. ماذا يحدث؟ ماذا فعلت؟ ماذا جنيت؟

- كدت تقتل كبير الكهنة. اعتذر له.

أقتله؟ كيف حدث هذا؟! ماذا حدث لك يا حور؟ قل لى ماذا حدث؟ شخص ما يجيبنى؟ أجُننت؟ ربما.

- اعتذر له يا حـــور.

أينْ هو حتى أعتذر له. أينْ هو؟

اقتربت من كبير الكهنة.

- اعتذر يا حـــور.

قبلت رأسه. تذكرت. كدت أخنقه. خلَّصه من بين يدىَّ سيا.

- مجنون يا حـــور مجنون!!

ســـيا

١

هـدأ حـور بعـد فتـرة غيـر قليلـة. جلسـنا فـى حجـرة كبيـر الكهنـة، نستسمحه. كان الرجل واسع الصدر تقبل ما حدث. اعتذر له حـــور. عرف الرجل هدفنا. فقال والحسرة تملؤه:

- لم يكن معبده على النهر يخفى على أحد. نلمحه من بعيد ونسعد برؤيته. وتملأنا الرهبة حين نفكر فى ذاته.

نذكر له عظيم فضله علينا وعلى بلادنا. فيخفت الشعور برهبته. ويملأنا الإحساس برحمته.

يحكى أهلنا الأقدمون أنَ نشأة الوجود بدأت هنا، فى فيله، كان العالم محيطاً أزلياً عظيماً، لا حس فيه ولا حسيس، وبزغ جزء من الأرض كان هو. وخرجت منه بيضة. كانت هو، وخرجت منها زهرة لوتس. كانت هو. تفتحت بتلاتها مع شروقه الذى سطع بنوره على العالم. وكانت الحياة هبة يديه، ومجتلاه السحرى الذى خلق فيه كل شىء.

أبو الآباء وأم الأمهات.

ينبع النهر من تحت قدميه.

لم نُفاجأ بوضعه هذا واختفائه، كثيراً يفعلها، يظهر ويختفى، ما دام الإيمان به كامناً، فلا شىء يهم. إنه موجود بظهوره واختفائه، بمنحه ومنعه.

٢

فى المساء قال لى عنخ:

- هذه الرحلة لى بمثابة التطهير.

- ممَّ؟!

- من كل شىء، حتى الحياة نفسها.

قلت له برفق:

- لا تفكر فى النهايات، ما دمت لم تجتز البدايات.

وسألنى مندهشاً:

- أمازلت تؤمن به؟!

لم أنطق. استمعت إليه أكثر.

- لمَّ؟!

- ماذا تريد؟!

- أريد أنْ أعرف...

- كما أننى لم أجبرك على الإيمان، فلا تجبرنى على الكفر.

عنخ

١

سألت سيدى حـــور قبل أنْ يأوى إلى فراشه الممتع - نفرت الجميلة:

- ربما يكون خنوم هذا تصوراً فى عقلك أنتَ فقط، وليس له وجود فى الواقع.

نظر إلىَّ بنظرة ليس لها معنى. ودخل حجرته.

حـــــور

٢

قالت نفرت وأنا على صدرها أحاول النسيان:

- كان هناك شاب جميل، قوى، فارس خطير، اسمه حـــور، أحب فتاة فاتنة الجمال، اسمها نفرت. وأحبته. عرف والدها الحكاية. وأنهما يتقابلان من ورائه. رفض حبهما البرىء الطاهر. أخفى ابنته فى مكان بعيد. فى هذه الجزيرة. أتعرفه؟

- أى مكان؟

- معبد إيزيس. وحبسها فى هذا المعبد، عند الإلهة الأم إيزيس العطوف، ليبعدها عن حبيب القلب حور الجميل القوى. لم ييأس حور. راح يبحث عن أميرة قلبه نفرت الجميلة فى كل مكان. سار يسأل الناس ولا أحد يدله عليها أو حتى على مكانها. يعطف على الحيوانات فى الصحراء وفى كل مكان. وفى يوم وصل به الشوق والبحث إلى هنا. وعرف أن أميرته فى الجزيرة. كيف يصل إليها؟ كيف؟ قال لنفسه: "سأتصرف. ماذا أفعل؟". قل معى ماذا أفعل؟

- ماذا فعل؟ وجد تمساحاً يسبح فى النهر مختالاً، ناداه، جاء إليه التمساح، طلب منه أنْ يركبه، حتى يصل به إلى الجزيرة. وصل الجزيرة وقابل الأميرة. وحكى لها حكايته وقصة بحثه المضنى عنها.

- حور نمت؟

- معكِ.

٩

الصخب فى طيبة

عنخ

١

شقت المركب طريقها وسط النهر إلى طيبة الحبيبة. وصلنا طيبة بعد أيام قليلة. الحر بدأ يشتد. والشمس أصبحت حارقة والجو نار قاتلة. أقام حور عند نفرت فى بيتها. وذهبت وسيا إلى رخت ورخ للإقامة عندهما. أوحشنى رخ كثيراً.

٢

أخبرت رخت بكل شىء. فى نهاية اللقاء قالت:

- أهذا كل شىء؟
- كل شىء.
- لماذا لم تخبرنى بما حدث لحور فى معبد إيزيس فى فيله؟
- شىء غير ضرورى.
- عنخ.. لا تنس سرك معى، فى بئرى..
- أعرف ذلك جيداً.
- أريد حور الليلة.
- الليلة؟
- الليلة.

٣

هددت بفضح سرى.

السخط والرضى. الحزن والفرح. الكراهية والحب. الوجود والعدم. اللذة

والمرارة. الألم والمتعة. الخفاء والتجلى. الغور والفور. الذل والكبرياء. الخفض والرفع.
افعل شيئاً يا عنخ. لا تقف مكتوف الأيدى. تاريخك الملىء بالخطايا والآثام مهدد بالسقوط.

رخـــت

١

اتفقت مع قداسته على كل شىء. الحظ يزدهر فى لحظة واحدة لا تأتى كثيراً. يأتى حـــور للاتفاق وإنهاء الصراع وإقامة الوفاق.

٢

غفوت قليلاً..
عصفور أخضر يطير فوق نار حامية، أحنو عليه، يهز لى ذيله. ابتسم. ملأت ابتسامتى ثغرى، حركته تزداد سرعة، يخفق قلبه، يطبع قبلة، فوق ثغرى. يحاول الطيران، يتوقف جناحاه، عاجزين، يسقط فى النار.
أقوم مفزوعة...
انفتح الباب المغلق، دخل ملثماً مسرعاً، لم أستطع الصياح، كتم أنفاسى، وحش فوقى، قوة الألم تعتصرنى، وخوفى لا يُقدر. مازالت قوة الألم تعتصر قلبى، ينزف بشدة، لم يندمل جرحه.
.....
قالت زوجة أبى: "خنوم.. منْ يا فاجرة؟! كذَّابة.. ممن أتيت به؟!".
صمت. ماذا أقول. حفنى الناس فى مدينتنا بالقداسة. فبدأت الحكاية.

حـــــور

١

جاءنى عنخ عند نفرت. وأخبرنى بأن رخت تريدنى فى المساء. لا أريدها. ماذا تريد؟ اذهب ولتر ماذا تريد، ربما يكون فى صالحك.

رخ

١

فى الغروب قال لى عنخ:

- أمك تخون ذكرى أبيك خنوم العظيم.
- ماذا تقول؟!!
- ومع منْ؟!
- منْ؟
- فكر؟
- تكلم.
- مع حـــور.
- كذَّاب!!
- الليلة على موعد غرامى معه.
- كذَّاب!!
- .....

٢

اختبئت فى حجرة أمى دون أنْ تدرى. دخلت أمى الحجرة. نقرة خفيفة

على باب الحجرة. دخل حور. يا للخيانة!! الحب باقٍ بيننا للأبد!! خونة!! خفقة واحدة ويتوقف قلبك عن الخفقان للأبد. لا تزدنى هموماً فوق همومى، فصدرى بها ملىء. رأسى فى الوحل.. فى المأساة.. فى الجريمة.. الجريمة..

حـــور

٢

علمت من عنخ بما دبرت رخت مع الكاهن الأكبر. أعلمتها بفرحى بمبايعة رخ المرتقبة بالعرش وطلبت منها أنْ تسند إلىَّ منصب الوزارة فى دولته الجديدة. فرحت وسعدت. حققت هدفها. العرش لرخ. وحـــور لها!!

رخ

٣

ترصدت لحور عند خروجه من بيت صديقته. خرج. أردت قتله. فشلت. لم أقدر!! بكيت. عاجز عن فعل أى شىء. لولا حبى لها لقتلتها. حبى يعجزنى.

٤

- وضعت الأرض كلها تحت نعليك.
- لا أريد.. أرفض يا أمى.
- ماذا تريد إذًا؟!

- أريد أمى... أريد نفسى.. أنْ أبحث عن نفسى... نفسى أينْ أنتِ؟
- هش أنت يا رخ... مجنون!
- أماه!
- اصمت. ولا كلمة. كله من أجلك أنتَ.

عنخ

٤

الأضواء تنتشر فى الممرات الطويلة المؤدية إلى حجرتها. الحجرة مظلمة. تحسست خنجرى. وجدته فى جرابه. سوف يعمل عمله الليلة. وسوف يصعد إلى السماء وينهى الشعرة الرفيعة بين الوجود والعدم. سمعت صوتها:

- عنخ.
- أينْ أنتِ؟
- تقدم.
- آه.. آه.. غير معقول!!

ســـيا

١

مالى لا أرى عنخ؟! سألنى عنه شن ورن. يبحثان عنه دون جدوى. أينْ ذهب؟ اختفى؟! بعد يومين عُثر على جثة عنخ فى النهر!! حزنت عليه كثيراً.

***

أوصياء عليك يا رب الوصاية!!

لا تتركنى وحدى، أواجه هذا الطوفان الجاحد. لا تتركنى. يبحثون عن أنفسهم. موجود فى كل الوجود. تسكن قلوب الصادقين من عشاقك وتهبهم الدفء والحب وحلاوة الإيمان.

***

فى العين دمعة.

وفى القلب لوعة.

وفى النفس حرقة.

انقذنى؛ فالخلاص بيدك، وحدك، وحدك، دون سواك. الأمل فيك كبير، معلق عليك منذ كان فى طور التخيل والتخلق.

***

الحياة فى حلوها ومرها صُنع يدك.

السخط والرضى فضاء ما بين إصبعيك.

الحرية والعبودية شعاع عينيك.

الوجود والعدم هبة كلمة من ثغرك.

جاءنى صوت فى المنام: "لا تقلق.. إنى معك أسمع وأرى".

حـــور

٣

أُعدت قاعة التتويج وحفلت بكل ما هو ثمين. الحراس يحيطون بالمكان من كل جانب. صُفت المقاعد بطريقة تسمح بالتحكم فى القاعة. تقدم الكاهن الأكبر إلى منصة التتويج.

رخ سعيد.

رخت تكاد تطير من الفرحة.. ها هو الأمل يضيع من بين يديك!! تنظر إلىَّ بين لحظة وأخرى مبتسمة وتربت على ركبتى. بدأ الكاهن الأكبر تلاوة أوراقه.. وأعلن فى ختام كلمته:

- آمون مسؤول بالطبع عما فعله خنوم فى سالف الزمان، وعليه أن يسدِّد دينه ويصوب أخطاءه.

آمون الذى يصلح؟! ألم يره الناس أعلى البلاد مع المرأة النوبية التى كان يشتهيها؟! أكمل يا صاحب القداسة أكمل.

- لقد أصبحت السيدة الفاضلة رخت نائبةً لآمون فى البلاد.. تصلح وتصوب ما قد فسد.. وتجدِّد ما قد تحطم.. ليعود الحق إلى أصحابه بعد طول غياب..

السيدات والسادة..

لا أخفى عليكم سراً، أن السيدة الفاضلة رخت تنازلت لابنها رخ العظيم بمحض إرادتها وفى تمام رغبتها عن نيابة آمون ومن ثم العرش.. عطاء كبير بلا شك.. نادر المثال فى هذا الزمان.

العرش لرخ!! والكاهن الأكبر يسيطر على الغلام!! ورخت تسيطر عليكَ!! وتسير تأكل الميتة مع الذئاب وكلاب الصحارى.. أكمل يا صاحب الحقارة أكمل.

- السيدات والسادة..

لقد تم اختيار رخ حاكماً للبلاد.. وسيداً للعالمين حتى يعود للبلاد عصرها الذهبى وتنعم بالأمن والرخاء.. فلتتقدم يا رخ.. عفواً... يا سيدى رخ العظيم.

تصفيق حاد من جموع الحاضرين.. وفرحة عارمة تسيطر على المكان.. يتقدم رخ مبتسماً فى كامل هيئته الملكية.. لا ينقصه سوى التاج.. يتقدم نحو المنصة.. يصعد إليها.. يضع الكاهن الأكبر التاج فوق رأسه ويقول:

- ها هو خنوم يعود ليحكم من جديد العالم بعد طول اختفاء ممثلاً فى ابنه رخ.. أقصد صاحب الجلالة الملك رخ العظيم..

اقتربت من المنصة متظاهراً بمصافحة رخ.. فتح رخ ذراعيه متقبلاً التهنئة منى.. وفى غفلة من الحراس وفى سرعة البرق استللت خنجرى المسموم وطعنت رخ طعنات نافذة فى قلبه. سقط على الأرض مغشياً عليه. وقفت القاعة. شهقت رخت. وهرعت إليه تحتضنه. حاولت الهرب. طعنة رمح من أحد الحراس أعاقت طريق النجاة..

ســـيا

٢

ما أفظع القتل!

أهكذا تنتهى الأحلام فى لحظة واحدة، تمتد من بداية العمر إلى نهايته، عبر سلسلة من التجليات والأمنيات ينتظمها شريط من الإخفاقات؟!

لا أكاد أصدق!

كيف يحدث هذا وفى لحظة واحدة؟! رغم قصر عمر هذه اللحظة وطول العمر، هى الوحيدة الصادقة فيه، الحقيقة الوحيدة المفضية إلى ظلال الأبدية.

***

سقط حور على الأرض. نظرت إليه رخت وهى تحتضن ابنها القتيل رخ. ضحكت بجنون. انخرطت فى موجة بكاء حاد. تبكى الابن أم العشيق أم كليهما؟!

***

أُيقتل فى يوم عيده!! فى عز مجده!! فى يوم تتويجه!!

***

تقدم الكاهن الأكبر من رخت مواسياً:

- عزائى الخالص للأم الرؤوم مع تمنياتى لها بالصبر والسلوان.

١٠

المنتهى منف

ســـــيا

١

رحماك!!

قُتلت رخت!!

خرجت تزور قبر ولدها. لأول مرة منذ مشهد القتل الدامى. تسللت نفرت، صديقة حور، لمصافحتها. وقدَّمت لها العزاء قائلة:

- العزاء لأم الفقيد العظيم.

تقبلت رخت العزاء. وهى تستدير كانت طعنة من يد نفرت القوية تشق ظهر رخت إلى نصفين. انتقمت لحبيبها حور.

٢

قررت الرحيل عن طيبة ونسيان هذه الرحلة القاتلة. صدرى لا يحتمل. أخذت مركباً غير مركب الراحل عنخ حتى لا أتذكر شيئاً مما مضى. رحلة مؤلمة بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

٣

يعود الفيضان ثانيةً بأمله وألمه وضجره.

٤

المركب فى حركة هادرة، تهبط إلى الشمال، سعيدة بذهابها إلى منف العظيمة التى لا يتفوق عليها فى قلبى سواها.

٥

موجود فى كل لمسة، فى كل خفقة، فـى كـل نفثـة مـن نفثـات سـحب السماء البيضاء، أراه، حقيقة، أسمع صوته الهامس الشجى كالموسـيقى العذبة، أحس به يربت علـى كتفـى ويحنـو ويأخـذنى برفـق إلـى قـدس أقداسه، إلى ذاته، بعيداً عن هذا العـالم المضـجر، إليـه يتوجـه شـوقى، وترتفع أدعياتى، وتترنم أغنياتى، إليه تصفو نفسى وتروق ذاتـى، هـو الحب، إليه يتوجه، ومنه إلى باقى البشر.

٦

منف..

وصلت منف وقت السحر والفجر يوشك على البزوغ.

٧

منف..

وهج الذكرى الغارقة فى نبع الحلم، مرمى البصر الحالم بالعشق دومـاً، ونور القلب المضىء ظلام الطريق.

٨

منف..

تطلـين علـى النهـر فـى منظـر شـاعرى يصـعب علـى الـذاكرة نسـيانه، خصوصاً، مع بدء المساء وتدفق نسمات الشمال المنعشة.

٩

منف..

إلى جوارك تختفى كل الموجودات الأخرى.

١٠

منف..

إنك تتألقين.

.....

ما قبل النهاية

أينْ خنوم؟!

أينْ هو حقاً؟!

هذا هو السؤال. هل كانوا جادين حقاً فى البحث عنه، أم ماذا؟

لماذا لا يظهر وينقذ العالم قبل الدمار؟ قبل الفناء؟

أينْ أنت يا خنوم الآن؟

أينْ أنت؟

لم يعد الصمت يجدى ونفد الصبر.

بحق الوجد والوجود أينْ أنتَ؟ قلبى يتوق شوقاً لرؤيتك.

جحوتى نخت

كبير كتَّاب معبد الإله بتاح

فى مدينة منف العظيمة

"تمت"

القاهرة – مارس ١٩٩٣

باريس/ داكار – مارس ١٩٩٦

قالوا عن "البحث عن خنوم"

ترتاد بنا هذه الرواية المهمة أحد أزهى عصور مصر الفرعونية، حين توافرت العناصر الحضارية الباحثة عن التوحيد.. ولأن الكاتب من المتخصصين المتميزين فى التاريخ الفرعونى، والمشاركين فى البحث والتنقيب عن تاريخ وآثار وحضارة مصر الفرعونية، فقد استطاع أنْ ينثر الكثير من مفردات الحياة اليومية الفرعونية، وقيم الماضى البعيد.. ولأن الرواية تسعى إلى "خنوم"، الإله الواحد الأكبر، فقد تعطرت بعبق الأسرار، وسحر المجهول، فشفت نفسها وصفت دون أنْ تفقد صلتها الرمزية بالحاضر..

سمير ندا

"البحث عن خنوم" رواية البحث عن الحقيقة التى تبدأ بالأسئلة القلقة وتنتهى كما بدأت ببحث جديد ورحلة جديدة علَّها تحاول الإجابة عن أسئلة الفلسفة القديمة وأسئلة التاريخ القديم بكل رمزيتها وأسطوريتها.

عزازى على عزازى

إنها رحلة عكس اتجاه النيل، تقدم من خلال عكسيتها تمرداً على النمطى والسائد والمتحجر، رحلة كونية تتدرج من البحث عن حقائق تغيب عنا، متساقطة فى رحلتنا الحياتية إلى البحث عن الذات، وفيها! خنوم فى سياقه يمثل الكثير من المثاليات المبحوث عنها، وهو فى سياقنا! عودة إلى أشياء مهما تباعدت بنا الرحلة فنحن فى أشد الحاجة إليها.

مصطفى الضبع

تعريف بالمؤلف:

- حاصل على ليسانس آثار مصرية قديمة - كلية الآثار - جامعة القاهرة.
- حاصل على درجتى الماجستير والدكتوراه فى تاريخ وآثار مصر والشرق الأدنى القديم - جامعة جونز هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية.
- يعمل آثاريًا بمجلس الأعلى للآثار.
- يكتب عن الآثار والمصريات والأدب والسينما وشخصيات مصر الحضارية فى عدد من الكتب والدوريات والمجلات والصحف.

صدر له:

- البحث عن خنوم – وزارة الثقافة – (طبعة أولى، ١٩٩٨).
- الأحمر العجوز – وزارة الثقافة – حائزة على جائزة د. سعاد الصباح فى الرواية (طبعة أولى، ٢٠٠٥).

إصدارات

دار نشر أنباء روسيا Russia News

www.russiannewsar.com

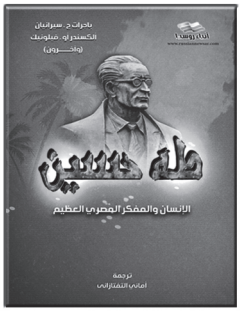

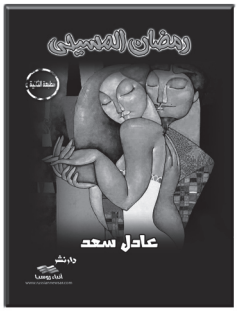

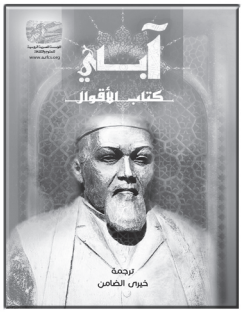

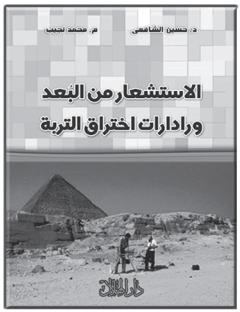

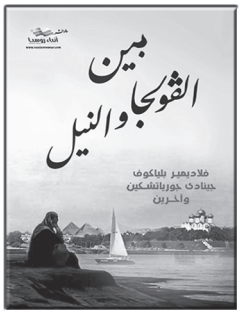

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

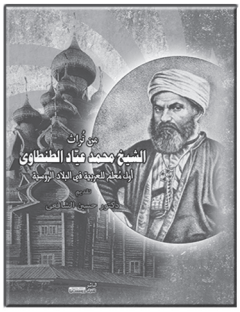

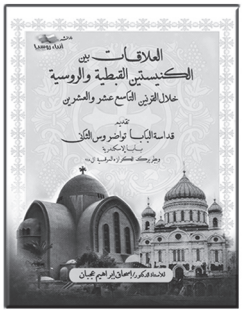

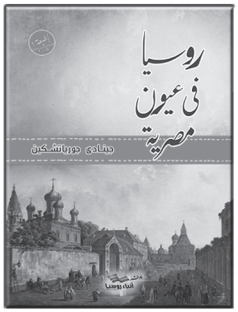

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

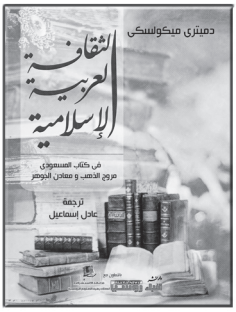

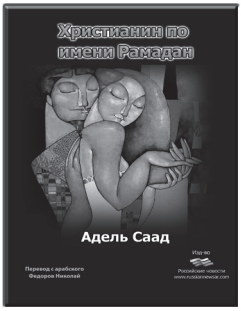

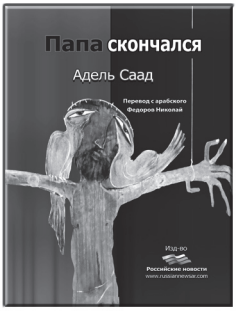

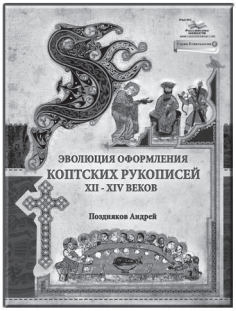

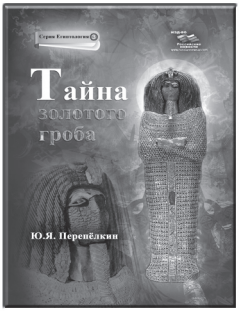

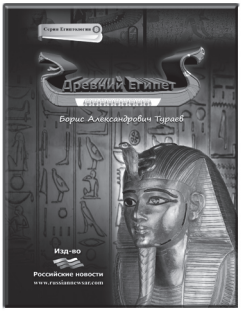

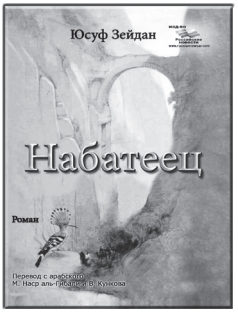

دار نشر

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

والمؤسسة المصرية الروسية

للثقافة والعلوم

www.a_rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى